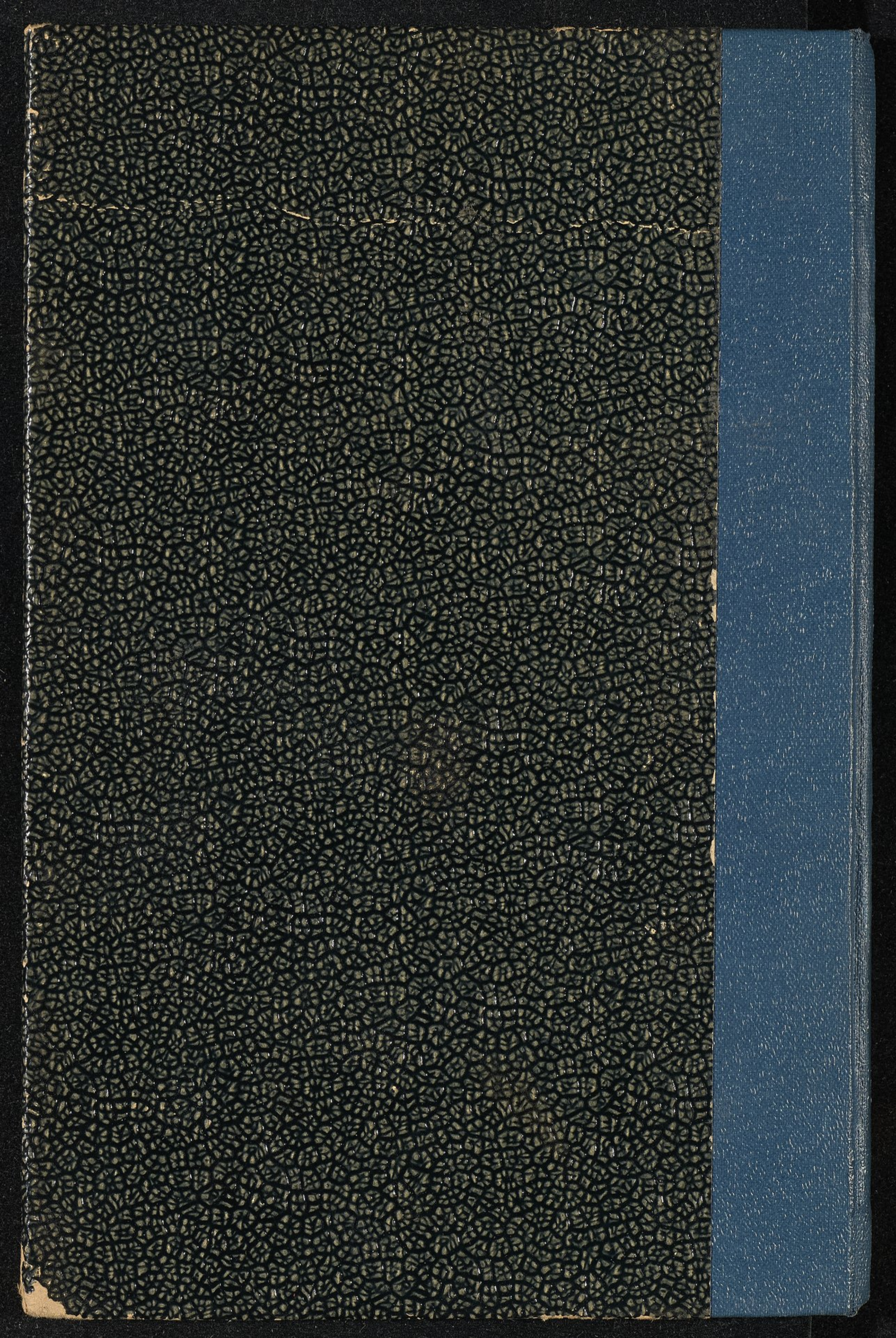
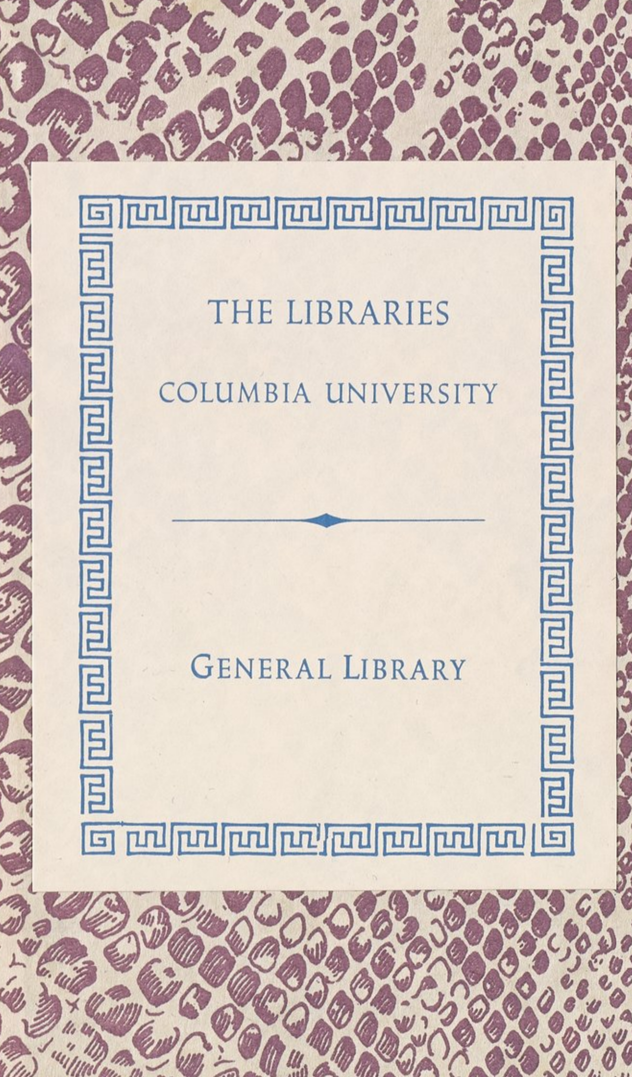
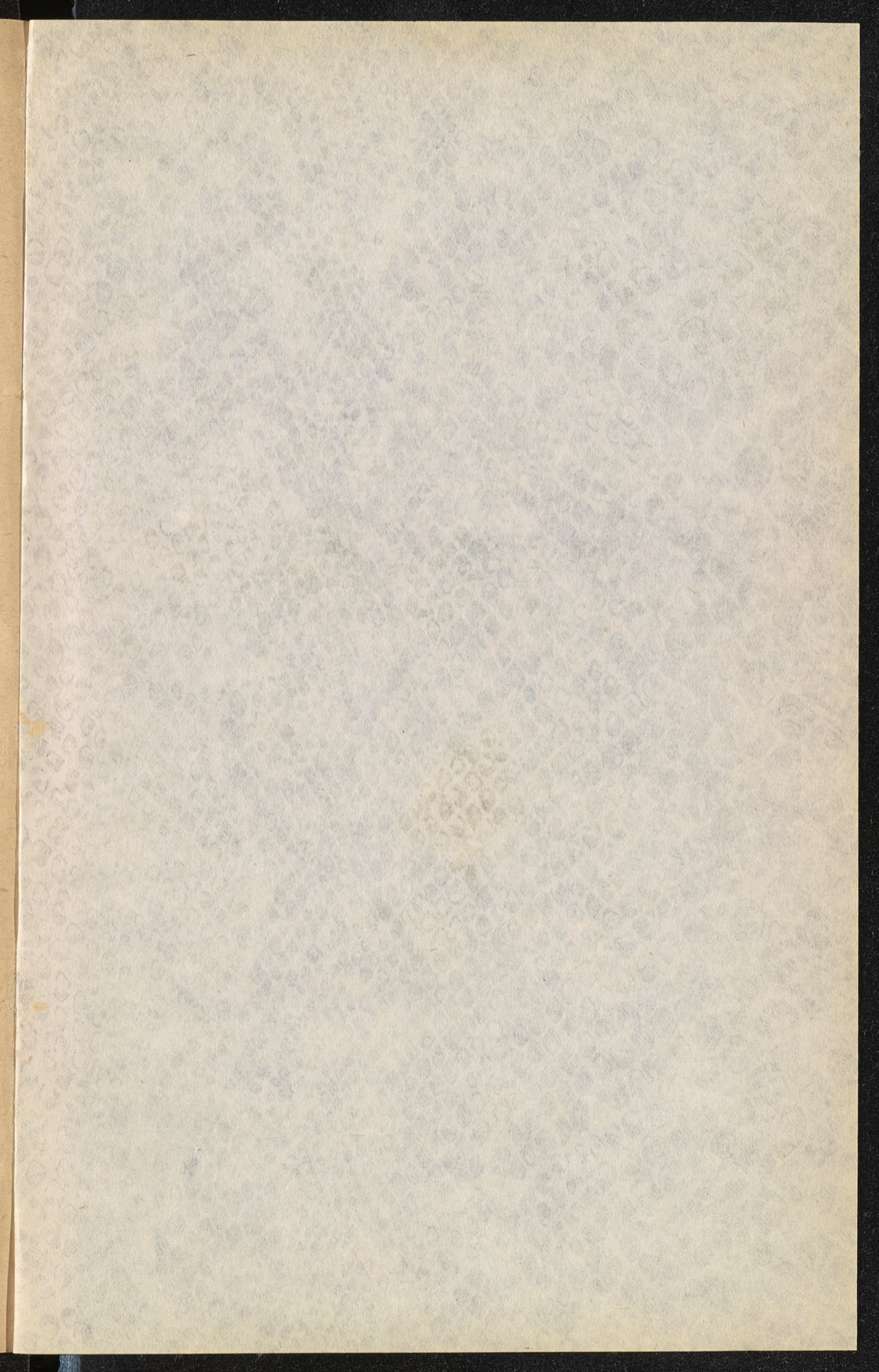








تفسير سورة يوسف عليه السلام

بقلم

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

رضي الله عنه

الطبعة الأولى فى صفر سنة ١٣٥٥ — مايو سنة ١٩٣٦

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين ، الذي أنزل عليه (الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) « وبعد »

فهذا تفسير سورة يوسف آخر مادبجه يراع العلامة الأوحد، فقيد الاسلام السيد الامام الشيخ محمد رشيد رضا ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، وإنها لتحفة غنية عن التعريف ، اشتدت الحاجة إليها ، وكثر التساؤل عنها ، نزفها إلى العالم الاسلامى كأثر جليل لصاحب المنار ، راجين لها ما تستحقه من الرواج والانتشار ؟ « إدارة المنار »

سورة يوسف عليه السلام — ١٢

هي مكية وآياتها مائة وإحدى عشر آية فقط ، وما قيل من أن الثلاث الأولى منها مدنيات فلا تصح روايته ولا يظهر له وجه وهو يخل بنظم الكلام، وقد راجعت الاتقان فاذا هو ينقله ويقول : وهو واه جداً فلا يلتفت إليه ، ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء فى المصحف المصري ويزاد عليه الآية السابعة

والمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل (ع.م) والاستدلال فى كل منهما على كونها وحياً من الله تعالى دالا على رسالة محمد خاتم النبيين (ص) بآيتين متشابهتين ، ففي آخر قصة نوح من الأولى (١٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وفى آخر الثانية (١٠٢ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وإشارة التأنيث فى الأولى للقصة المنزلة بهذا التفصيل والبلاغة العجيبة وقيل للسورة، وإشارة التذكير فى الثانية لقوله تعالى فى أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) والفرق بين قصتها وقصص الرسل فى التى قبلها وفى سورة الأعراف وغيرها أن تلك قصص للرسل مع أقوامهم فى تبليغ دعوة الرسالة والمحاجة فيها، وعاقبة من آمن بهم ومن كذبهم لانذار مشركى مكة ومتبعيهم من العرب ، وقد كررت بالاساليب والنظم المختلفة لما فيها من أنواع التأثير ووجوه الاعجاز التى تقدم بيانها فى مباحث (الوحي المحمدي) ثم فى بحث التحدي بعشر سور مثله مفتريات . وأما سورة يوسف فهي قصة نبي واحد وجد فى غير قومه قبل النبوة صغير السن وبلغ أشده واكتهل فنبىء وأرسل ودعا إلى دينه ، وكان مملوكا ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم، فأحسن الادارة والتنظيم، وكان خير قدوة للناس فى رسالته وجميع مادخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة فكان من الحكمة أن تجمع قصته فى سورة واحدة كما نجمله فى أولها ونفصله إن شاء الله فى خاتمتها . وهي أطول قصة فى القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ثم كانت إلى تمام المائة فى تاريخ يوسف وختمت باحدى عشرة آيه في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين وإعجاز كتابه والعبرة العامة بقصص الرسل (ع.م)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) الٓر ، تِلْكَ آيَٰتُ الْكِتَٰبِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ

فاتحة هذه السورة هي فاتحة سورة يونس إلا وصف القرآن بالمبين هنا وبالحكيم هنالك ، وهما في أعلى ذروة من البيان ، وأقصى مدى من الحكمة والاحكام ، اختير في كل من السورتين ما يناسبها ، فسورة يونس موضوعها أصل الدين وهو توحيد الالوهية والربوبية وإثبات الوحي والرسالة باعجاز القرآن والبعث والجزاء وهي من الحكمة . وهذه موضوعها قصة نبي كريم تقلب في أطوار كثيرة كان قدوة خير وأسوة حسنة فيها كلها ، فالبيان بها أخص

١ ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي آيات هذه السورة هي آيات الكتاب البين الظاهر بنفسه في حقيته وإعجازه وكونه ليس من كلام البشر ، والمظهر لما شاء الله من حقائق الدين ومصالح الدنيا ، وقال مجاهد : بين الله حلاله وحرامه ، وقال الزجاج : مبين للحق من الباطل والحلال من الحرام . تقول العرب أبان الشيء فعلا لازما بمعنى ظهر واتضح . وتقول أبان الرجل كذا إذا أظهره وفصله من غيره مما شأنه أن يشتبه به ، ويجوز الجمع بينهما هنا كما قلنا آنفا

٢ ﴿ إنا أنزلناه ﴾ أي الكتاب على رسولنا النبي العربي حال كونه ﴿ قرآنا عربيا ﴾ أي يبين لكم بلغتكم العربية مالم تكونوا تعلمون من الدين وأنباء الرسل والعلم والحكمة والادب والسياسة ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ معانيه أيها العرب، وما ترشد اليه

من مطالب الروح ومدارك العقل، وتزكية النفس، وتثقيف مدارك الوجدان والحس، واصلاح الاجتماع العام، المراد بها صلاح الحال، وسعادة المآل، والقرآن اسم جنس يطلق على بعضه كالسورة الواحدة وقيل انه المراد هنا، وعلى جملته كلها

٣ — ﴿ نحن نقص عليك ﴾ أيها الرسول المصطفى ﴿ أحسن القصص ﴾ أي نحدثك أحسن الاقتصاص والتحديث بيانا وأسلوبا وإحاطة، أو أحسن ما يقص ويتحدث عنه موضوعا وفائدة، ويجوز الجمع بين المعنيين فالقصص مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها، لانه من قص الاثر واقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبراً، كأنه قال نقصه عن اقتصاص وإحاطة، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الاخبار والاحاديث

﴿ بما أوحينا اليك هذا القرآن ﴾ أي بإيحائنا اليك هذه السورة من القرآن، إذ هو الغاية العليا في حسن فصاحته وبلاغته وتأثيره وحسن موضوعه، ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ أي وان الشأن وحقيقة ما يتحدث عنه من قصتك أنت انك كنت من قبل إيحائنا إياه اليك من جماعة الغافلين عنه من قومك الاميين الذين لا يخطر في بالهم التحديث بأخبار الانبياء وأقوامهم، وبيان ما كانوا عليه من دين وتشريع كيعقوب وأولاده في بداوتهم، ولا ما كانت الامم فيه من ترف وحضارة كالمصريين الذين وقع يوسف بينهم، وحدث لهم ما حدث في بعض بيوتاتهم العليا ثم في بيت الملك وادارة نظام الدولة

---

(٤) إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٥) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ

الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان ما وقع بين يوسف في طفولته ، وأبيه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فاستدل أبوه برؤياه ، على أن سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، فتعلق به أمله ، وشغف به قلبه ، فكان مبدأ لكل ماحدث له من الوقائع المحرقة ، ومن العاقبة المشرقة ، فهذه الرؤيا لا يظهر تأويلها إلا في آخر هذه الرواية ، وأصحاب القصص المنتحلة في عصرنا يحتذون أسلوب قصة يوسف في سورته هذه بوضع خبر مشكل خفي يشغل فكر القارىء في أولها ، ويظل ينتظر وقوع مايحل اشكاله ، ويفسر مآله ، فلا يصيبه إلا في آخر القصة ، وقد قال النبي ﷺ « ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » رواه أحمد والبخاري وغيرهما ، وفي رواية « الكريم بن الكريم » الخ

﴿ ٤ ـ إذ قال يوسف لابيه يا أبت ﴾ هذا شروع في بيان أحسن القصص فهو بدل منه يشتمل عليه . والاكثرون يعدونه بدء كلام جديد يقدرون له متعلقا : اذكر أيها الرسول إذ قال يوسف لأبيه : يا أبت الخ والتاء هنا بدل من ياء المتكلم وهو مسموع من العرب في نداء الاب والأم والفصيح كسرها وسمع فتحها وضمها أيضا ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ﴾ في المنام بدليل ما يأتي بعد ، ثم بين الصفة التي رأى عليها هذه الجماعة السماوية بقوله ﴿ رأيتهم لي ساجدين ﴾ والسجود التطامن والانحناء الذي سببه الانقياد والخضوع أو المبالغة في التعظيم وأصله قولهم : سجد البعير ـ إذا خفض رأسه لراكبه عند ركوبه ، وكان من عادات الناس في تحية التعظيم في بلاد فلسطين ومصر وغيرهما ، واستعمل في القرآن بمعنى انقياد كل المخلوقات لارادة الله تعالى وتسخيره وهذا سجود طبيعي غير ارادي ، ولا يكون السجود عبادة الا بالقصد والنية من الساجد للتقرب الى من يعتقد أن له عليه سلطانا ذاتيا غيبيا فوق سلطان الاسباب المعهودة ، وكان الاصل في التعبير

عن سجود هذه الكواكب التي ليس لها ارادة أن يقول رأيت كذا وكذا ساجدة لي ، ولكنه أراد أن يخبر والده أنه رآها ساجدة سجوداً كأنه عن ارادة واختيار كسجود العقلاء المكلفين فأعاد فعل رأيت وجعل مفعوله ضمير العقلاء، وجمع صفة هذا السجود جمع المذكر السالم ، فعلم أبوه أن هذه رؤيا إلهام، لا يمكن أن تعد من أضغاث الاحلام ، التي تثيرها في النوم الخواطر والافكار ، ولا سيما خواطر غلام صغير كيوسف يخاف أبوه أن يأكله الذئب ، وفي سفر التكوين أنه كان قد بلغ السادسة عشرة وهو بعيد

٥ - ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ يا بني تصغير لكلمة ابن في نداء العطف والتحبب، وقص الرؤيا على فلان كقص القصة معناه أخبره بها على وجه الدقة والاحاطة كما تقدم آنفا ، وقد يفهم منه المعبر البصير المعنى المناسب للرائي القاص أو المعنى التي تؤول اليه في المستقبل إذا كانت رؤيا حق كما يقع للانبياء عليهم السلام قبل وحي التكليم ومقدماته، وقد فهم هذا يعقوب واعتقد أن يوسف سيكون نبياً عظيما ذا ظهور وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته ماسمعه ويفهموا ما فهمه فيحسدوه ويكيدوا لاهلاكه فنهاه أن يقص رؤياه عليهم وعلله بقوله ﴿ فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي ان تقصها عليهم يحسدوك فيدبروا ويحتالوا للايقاع بك تدبيراً شيطانياً يحكمونه بالتفكير والروية، كما يفعل الاعداء في المكايد الحربية ، يقال كاد إذا وجه اليه الكيد مباشرة ، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله سواء كان لمضرته وهو المراد هنا ، أو لمنفعته ومنه قوله تعالى في تدبير يوسف لابقاء أخيه عنده (كذلك كدنا ليوسف) وسيأتي بيان هذه المقابلة

﴿ إن الشيطان للانسان عدو مبين ﴾ ظاهر العداوة بينها لا تفوته فرصة لها فيضيعها . هذا بيان مستأنف للسبب النفسي لهذا الكيد وهو أنه من وسوسة الشيطان في النزغ بين الناس عند ما تعرض له داعية من هوى النفس وشرها الحسد الغريزي في الانسان ، كما عبر عنه يوسف بعد وقوعه وسوء تأثيره وحسن عاقبته بقوله (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) وفي قصته من سفر التكوين

أن يوسف قص رؤياه على أبيه وإخوته جميعا من أول وهلة وما قصه الله هو الحق الذي روي بالتواتر القطعي وسفر التكوين غير مروي بالاسانيد المتصلة المتواترة، ولا دليل على أن أصله وحي من الله تعالى، ولكنه كتاب قديم التاريخ له قيمة لا تعصمه من الخطأ

٦ - ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي ومثل ذلك الشأن الرفيع والمجد البديع الذي تمثل لك في رؤياك، يجتبيك ربك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم فتكون من عباده المخلصين [بفتح اللام كما وصفه الله فيما يأتي قريبا] فالاجتباء افتعال من جبيت الشيء إذ خلصته لنفسك، والجباية جمع الشيء النافع كالماء في الحوض والمال للسلطان ولي الامر ﴿ويعلمك من تأويل الاحاديث﴾ أي يعلمك من علمه اللدني تأويل الرؤى وتعبيرها أي تفسيرها بالعبارة والاخبار بما تؤول اليه في الوجود، وهو تأويلها كما سيأتي حكاية لقول يوسف لأبيه (هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) أي ما هو أعم من ذلك من معاني الكلام، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها، وقال بعض المفسرين وتبعه غيره إن الرؤيا حديث الملك إن كانت صادقة وحديث الشيطان إن كانت كاذبة، وهذا القول يخالف الواقع فان رؤيا يوسف ليس فيها حديث وكذا رؤيا صاحبيه في السجن ورؤيا ملك مصر، وانما سميت رؤيا لانها عبارة عما يرى في النوم كما ان الرؤية اسم لما يرى في اليقظة فهما كالقربة والقربى وفرق بينهما للتمييز، وقد يسمع رائيها أحاديث رجل يحدثه ولكن تأويل رؤياه يكون لجملة ما رآه وسمعه لا لما سمعه فيها فحسب، كما يقصه بحديثه على من يعبره له. أي يعبر به من مدلول حديثه اللفظي إلى مايؤول اليه. وقد يكون قريبا كرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك، وقد يكون بعيداً كتأويل رؤيا يوسف نفسه، ولفظ الاحاديث اسم جمع سماعي كالأباطيل. والرؤيا الصادقة ضرب من إدراك نفس الانسان أحيانا لبعض الاشياء قبل وقوعها باستعدادها الفطري، إما بعينها وهو قليل، وإما بمثال يدل عليها وهو المحتاج إلى التأويل، وسنبين الفرق بين الرؤيا الصادقة وبين أضغاث الاحلام، ورأي علماء الافرنج ومقلديهم فيها في خلاصة السورة الاجمالية إن شاء الله تعالى،

وتعليم الله التأويل ليوسف إيتاؤه إلهاما وكشفا للمراد منها أو فراسة خاصة فيها، أو علما أعم منها، كما يدل عليه قوله الآتي لصاحبي السجن (١٢: ٣٦ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي) روي عن ابن زيد انه قال في تأويل الاحاديث: تأويل العلم والحلم وكان يوسف من أعبر الناس، وقال الزجاج تأويل أحاديث الامم السالفة والكتب المنزلة

زعم الزمخشري وتبعه مقلدوه ان هذه الجملة كلام مبتدأ غير داخل في حكم التشبيه كانه قيل وهو يعلمك ويتم نعمته عليك وبنى هذا على ما فهمه من دلالة الرؤيا على الاجتباء فقط، وما هذا الفهم إلا من تأثير قواعد النحو، والذي نجزم به أن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما مجملا كل مابشر به ابنه رائيها، وأما كيد اخوته له اذا قصها عليهم فقد استنبطه استنباطا من طبع الانسان، وعداوة الشيطان، فلما حذره من الاستهداف لذلك باثارة حسدهم، قفى عليه ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتباء ربه الخاص به، ومن تأويل الاحاديث وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس الى رفعة قدره وعلو مقامه، فهو معطوف على الاجتباء مشترك معه في البشارة

ثم عطف عليه ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ﴿ وعلى آل يعقوب ﴾ وهم أبواه واخوته وذريتهم (وأصل الآل أهل بدليل تصغيره على أهيل، وهو خاص في الاستعمال بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل الملك ويقال لغيرهم أهل) باخراجهم من البدو، وتبوئهم المقام الكريم بمصر، ثم بتسلسل النبوة في أسباطهم الى أجل معلوم

﴿ كما أتمها على أبويك من قبل ﴾ أي من قبل هذا العهد أو من قبلك ﴿ ابراهيم واسحق ﴾ هذا بيان لكلمة أبويك وهما جده وجد أبيه، وقدم الاشرف منهما، وهذا الاستعمال مألوف عند العرب وغيرهم وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم يا ابن عبد المطلب بل قالها هو أيضا، وهذا التشبيه مبني على ما كان يعلمه يعقوب من وعد الله لابراهيم باصطفاء آله، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، وإنما علم من رؤيا يوسف أنه

هو حلقة السلسلة النبوية الاصطفائية بعده من أبنائه ، فلهذا علل البشارة بقوله ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يصطفيه، حكيم باصطفائه، وباعداد الاسباب وتسخيرها له، وكان هذا العلم من يعقوب بما بشر الله به أبويه لهما ولذريتهما، وبدلالة رؤيا يوسف على أنه هو حلقة السلسلة الذهبية لهم ، هو السبب كما قلنا لزيادة حبه له وعطفه وحرصه عليه، الذي هاج ما كان يحذره من حسد اخوته وكيدهم له، ولكونه لم يصدق ما زعموه من أكل الذئب له، ولم ينقطع أمله منه، بل لم ينقص إيمانه بما أعده الله له ولهم به، ولكن علمه بذلك كان اجماليا لا تفصيليا، وقد جاءت قصته من أولها إلى آخرها مفصلة لهذا الاجمال ، تفصيلا هو من أبدع بلاغة القرآن ، وزاد بعض المفسرين في التشبيه إنجاء إبراهيم من النار وإنجاء اسحاق من الذبح ولكن التحقيق أن الذبيح اسماعيل لا اسحاق كما يدل عليه قوله تعالى بعد قصته من سورة الصافات (وبشرناه باسحاق) وكون القصة كانت في الحجاز وهي الاصل في أضاحي منى هناك ، وانما الذي نشأ في الحجاز اسماعيل لا اسحاق كما هو معلوم بالتواتر

---

(٧) لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَٰتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٨) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٩) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَٰلِحِينَ

هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما في صفة القرآن وكونه تنزيلا من الله دالا على رسالة من أنزل عليه، وكونه عربيا تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه وكون النبي صلى الله عليه وسلم كان من قبله غافلا عما جاء فيه لا يدري منه شيئا ، ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى (١٠٢ ذلك من أنباء الغيب) الخ

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهماً إجمالياً كلياً كما بيناه آنفاً وبنى عليه أن حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته، وبشره بحسن عاقبته، ونتيجة هاتين القضيتين ماقاله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له (١٠٠ ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) الخ

فمثل هذا الترتيب المنطقي العقلي البديع يتوقف نظامه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والاحاطة بدقائقها، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لاجلها، فتجعل الاولى براعة مطلع، والآخرة براعة مقطع، فقل لمن جهل سيرة محمد ﷺ وتاريخه: إن محمداً لم يكن قارئا ولا كاتبا، ولا خطيبا ولا شاعراً، ولا مؤرخا، ولا راويا، ولا حافظا للشعر ولا ناثراً، بل كان كما قال الله تعالى غافلا عن هذه القصة وكل ماجاء في القرآن، وكانت تنزل عليه السورة القصيرة فيعجل بقراءتها لئلا ينسى منها شيئا، فنهي عن ذلك عند ماعرض له في أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى (١٦:٧٥ لاتحرك به لسانك لتعجل به ١٧ إن علينا جمعه وقرآنه ١٨ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ١٩ ثم إن علينا بيانه) وبقوله (١١٤:٢٠ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما) وقوله (سنقرئك فلاتنسى) وقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فلما ضمن ربه له أمن ضياع شيء منه بعدم حفظه عند تلقيه، أو نسيانه بعده، زال خوفه، وترك الاستعجال بقراءته

وهذه السورة الطويلة نزلت عليه دفعة واحدة كأكثر السور المكية حتى الطول منها كسورة الانعام فلم يكن يدري من هذا الترتيب والنسق لها ولا من موضوعها شيئا قبل وحيها، ولا يحيط به إلا أن يكمل له تلقيها عن الروح الامين عليهما السلام، ولكن العجب أن يغفل عنه أو يجهله أحد من المفسرين فرسان البلاغة الفنية، والآن وقد بينته لقارىء هذا التفسير ليفطن لدلالة السورة بنظمها وبلاغتها على اعجاز القرآن اللفظي، وبما فيها من التشريع وعلم الغيب على اعجازه المعنوي، وبالاعجازين كليهما على نبوة محمد ﷺ ورسالته أشرع في تفسير

القصة متبرئا من حولي وقوتي الى حول الله وقوته ، وهي :

---

٧ ﴿ لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين ﴾ أي لقد كان في قصة يوسف واخوته لابيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته، وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم، وحسن عنايته بهم، للسائلين عنها، من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها، لانهم هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فان للظواهر غايات لا تعلم حقائقها إلا منها ، فاخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل الى عزيز مصر، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما أمنه على بيته ورزقه وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لاخفاء هذا الامر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن به ولاه وجعله على خزائن الارض، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه واخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم الى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده، بل لما تم قول أبيه له (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) فما من حلقة من هذه السلسلة الا وكان ظاهرها محرقا ، وباطنها مشرقا ، وبدايتها شراً وخسراً، وعاقبتها خيراً وفوزاً ، وصدق قول الله عز وجل (والعاقبة للمتقين)

فهذه أنواع من آيات الله في القصة للسائلين عن وقائعها الحسية الظاهرة ، وما هو أعلى منها من علومها وحكمها الباطنة ، كعلم يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم بدعوى أكل الذئب له ، ومن شهادة الله له بالعلم بقوله (وإنه لذو علم لما علمناه) الآية ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر قاصدة أرض كنعان . ومن علم يوسف بتأويل الاحاديث ، ومن رؤيته لبرهان ربه ، ومن كيد الله له ليأخذ أخاه بشرع الملك ، ثم من علمه بأن إلقاء قميصه على

أبيه يعيده بصيراً بعد عمى سنين كثيرة ، في القصة مجال لسؤال السائلين عن كل هذه المعاني من العلم الروحاني ، وهي أخفى مما قبلها ، وأحق بالسؤال عنها

وقيل ان المراد بالسائلين جماعة من اليهود جاؤا مكة وسألوا النبي ﷺ سؤال امتحان عن نبي كان بالشام أخرج ابنه الى مصر فبكى عليه حتى عمي؟ فأنزل الله تعالى عليه سورة يوسف جملة واحدة كما في التوراة، وروي أن بعضهم لقنوا بعض أهل مكة أن يسألوه عن قصة يوسف، وروي ان بعضهم سألوه عن أسماء الكواكب الاحد عشر التي رآها يوسف في منامه ولم يكن يعرفها فنزل عليه جبريل فلقنه إياها فجاءت موافقة لما في التوراة ، وذكروا هذه الاسماء في تفاسيرهم ، فالمراد بالآيات على هذا دلائل نبوة محمد ﷺ ولا يصح من هذه الروايات شيء بل هي من الاسرائيليات ، وليس في التوراة ذكر لأسماء هذه الكواكب ، وقصة يوسف في القرآن موافقة لجملة مافي سفر التكوين ومخالفة له في بعض دقائقها وسنذكر من ذلك غير ماذكرنا آنفا

---

٨ ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا﴾ أي ان في قصتهم لآيات في الوقت الذي ابتدؤا فيه بقولهم جازمين مقسمين: ليوسف وأخوه الشقيق له واسمه بنيامين أحب الى أبينا منا كلنا(١) ﴿ونحن عصبة﴾ أي يفضلهما علينا بمزيد المحبة على صغرهما وقلة غنائهما والحال أننا نحن عصبة عشرة رجال أقوياء أشداء متعصبون نقوم له بكل مايحتاج إليه من أسباب الرزق والحماية والكفاية ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ انه لفي تيه من المحاباة لهما ضل فيه طريق العدل والمساواة ضلالا بينا لايخفى على أحد إذ يفضل غلامين ضعيفين من ولده لايقومان له بخدمة نافعة ، على العصبة أولي القوة والكسب والنجدة . وهذا الحكم منهم على أبيهم جهل مبين وخطأ كبير ، لعل سببه اتهامهم إياه بافراطه في حب أمهما من قبل، فيكون مثاره الاول اختلاف

---

(١) الاخبار باسم التفضيل مفردا كما هنا يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا، والمعرف بأل تجب فيه المطابقة وبالاضافة يجوز فيه الوجهان

الامهات بتعدد الزوجات ولاسيما الاماء منهن (١) وهو الذي أضلهم عن غريزة الوالدين في زيادة العطف على صغار الاولاد وضعافهم و كانا أصغر أولاده ، فقد سئل والد بليغ : أي ولدك أحب اليك؟ قال صغيرهم حتى يكبر ، وغائبهم حتى يحضر ، ومريضهم حتى يشفى ، وفقيرهم حتى يغنى [وأشك في هذه الاخيرة]

ومن فوائد القصة وجوب عناية الوالدين بمداراة الاولاد وتربيتهم على المحبة والعدل واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم ومنه اجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحاباة لأخيه بالهوى ، وقد نهى عنه النبي ﷺ مطلقا ، ومنه سلوك سبيل الحكمة في تفضيل من فضل الله تعالى بالمواهب الفطرية كمكارم الاخلاق والتقوى والعلم والذكاء . وما كان يعقوب بالذي يخفى عليه هذا ، وما نهى يوسف عن قص رؤياه عليهم إلا من علمه بما يجب فيه ، ولكن ما يفعل الانسان بغريزته وقلبه وروحه؟ أيستطيع أن يحول دون سلطانها على جوارحه ؟ كلا

دلائل العشق لا تخفى على أحد   كحامل المسك لايخلو من العبق

٩ ـ ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾ أي اقتلوه قتلا لا مطمع بعده ولا أمل في لقائه ، أو انبذوه كالشيء اللقا الذي لاقيمة له في أرض مجهولة بعيدة عن مساكننا أو عن العمران بحيث لايهتدي إلى العودة إلى أبيه سبيلا إن هو سلم فيها من الهلاك ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ فيكن كل توجهه اليكم ، وكل إقباله عليكم ، بخلو الديار ممن يشغله عنكم أو يشاركـكم في عطفه وحبه ، وهذه الجملة من فوائد

(١) كان ليعقوب من الولد اثنا عشر ولداً ذكراً وهم (١) رأوبين بكر يعقوب (٢) وشمعون (٣) ولاوي (٤) ويهوذا (٥) ويساكر (٦) وزبولون ، وهؤلاء من ليئة بنت خاله لابان (٧) ويوسف (٨) وبنيامين من راحيل بنت خاله الاخرى ، وهما أصغر أولاده (٩) ودان (١٠) ونفتالي من بلهة جارية راحيل (١١) وجاد (١٢) وأشير من زلفة جارية ليئة . وهؤلاء الاولاد ولدوا له وهو في فدان ارام يرعى غنم خاله لابان مهراً لابنتيه ليئة وراحيل وأجراً لما زاده من خدمته في رعيها وعاد بهم بعد انقضاء الاجل وبما أخذ من غنم خاله إلى أرض كنعان إلا بنيامين فقد ولد في كنعان

درر الكلام البليغ بتصويرها حصر الحب وتوجه الاقبال والعطف بصورة الضروريات التي لا اختيار للرأي ولا للارادة فيها ، لا من ظاهر الحس ، ولا من وجدان النفس ، بعد وقوع هذه الجناية التي تقتضي إعراض الوجه ، وأعراض الكراهة والمقت ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ أي من بعد يوسف أو بعد قتله وتغريبه ﴿ قوما صالحين ﴾ تائبين إلى الله من هذه الجريمة ، مصلحين لاعمالكم بما يكفر إثمها ، وعدم التصدي لمثلها ، فيرضى عنكم أبوكم ويرضى ربكم ، هكذا يزين الشيطان للمؤمن المتدين معصية الله تعالى ولا يزال ينزغ له ويسول ، ويعد ويمني ويؤول ، حتى يرجح داعي الايمان ، أو يجيب داعي الشيطان ، وهذا الذي غلب على إخوة يوسف فكان ، ولكن بعد رأفة مخففة لحكم الانتقام ، وهو مقتضى الحكمة التي أرادها الله :

١٠ - ﴿ قال قائل منهم ﴾ أبهمه القرآن لان تعيينه بتسميته لا فائدة منها في عبرة ولا حكمة ، وإنما الفائدة في وصفه بأنه منهم ، وهي أنهم لم يجمعوا على جناية قتله . وقال السدي إنه يهوذا ، وفي سفر التكوين انه رأوبين ﴿ لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴾ الجب البئر غير المطوية أي غير المبنية من داخلها بالحجارة وهو مذكر والبئر مؤنثة وتسمى المطوية منها طويا ، وغيابته بالفتح ما يغيب عن رؤية البصر من قعره أو حفرة بجانبه تكون فوق سطح الماء يدخلها من يدلى فيه لاخراج شيء وقع فيه أو إصلاح خلل عرض له ، وعلم من التعريف انه جب معروف كان هنالك حيث يرعون ، وجواب ألقوه ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ وهم جماعة المسافرين الذين يسيرون في الارض يقطعون الارض من مكان إلى آخر لاجل التجارة فيأخذوه إلى حيث ساروا من الاقطار البعيدة فيتم لكم الشق الثاني مما اقترحتم وهو إبعاده عن أبيه ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ ما هو الصواب المقصود لكم بالذات فهذا هو الصواب ، وجناية قتله غير مقصودة لذاتها ، فعلام إسخاط الله باقترافها والغرض يتم بما دونها ؟ وفي سفر التكوين ان رأوبين مكر بهم إذ كان يريد أن يخرجه من الجب ويرجعه إلى أبيه ، وانهم وضعوه في البئر وكانت فارغة لا ماء

فيها ، فمرت بهم سيارة من تجار الاسماعيليين (العرب) مسافرة إلى مصر ، فاقترح عليهم يهوذا إخراجه وبيعه لهم إذ لا فائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا ، فهذا ما دار بينهم وأجمعوه من أمرهم

(١١) قَالُوا يَاأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١٢) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٣) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٤) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ

هذا بيان مستأنف لما كادوا به أباهم بعد ائتمارهم بيوسف ليرسله معهم وهو الحق . وفي سفر التكوين ان أباهم هو الذي أرسله اليهم بعد ذهابهم

١١ - ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ﴾ يعنون أي شيء عرض لك من الشبهة في أمانتنا فجعلك لا تأمنا على يوسف ؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ويظهر أنهم قد علموا بها ، كما أنه شعر منهم بالتنكر له

على حد قول الشاعر * كاد المريب بأن يقول خذوني * ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ أي والحال إنا لنخصه بالنصح الخالص من شائبة التفريط أو التقصير ، أكدوا هذه الدعوى بالجملة الاسمية المصدرة بأن وتقديم «له» على خبرها واقترانه باللام . ولولا شعورهم بارتيابه فيهم لما احتاجوا إلى كل هذا التأكيد

١٢ - ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ﴾ أي أرسله معنا غداة غد إذ نخرج كعادتنا إلى مراعينا في الصحراء يرتع معنا ويلعب . وقرىء في المتواتر أيضا [نرتع ونلعب] بنون الجماعة وهي مفهومة من قراءة الياء فان المراد من خروجه معهم مشاركته إياهم في رياضتهم وأنسهم وسرورهم بحرية الاكل واللعب والرتوع وهو

أكل ما يطيب لهم من الفاكهة والبقول ، وأصله رتع الماشية حيث تشاء . قال الزمخشري في الكشاف (نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها ، وأصل الرتعة الخصب والسعة اه وأما لعب أهل البادية فأكثره للسباق والصراع والرمي بالعصي والسهام إن وجدت . وسيأتي ان لعبهم كان الاستباق بالعدو على الأرجل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ مادام معنا نقيه من كل سوء وأذى ، أكدوا هذا الوعد كسابقه مبالغة في الكيد

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) أرسله معنا غداً نرتع ونلعب ، قال نسعى وننشط ونلهو . وعن ابن زيد [يرتعي بالياء وكسر العين قال يرعى غنمه وينظر ويعقل ويعرف مايعرف الرجل] وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن هارون قال كان أبو عمرو يقرأ (نرتع ونلعب) بالنون فقلت لأبي عمرو كيف يقولون (نرتع ونلعب) وهم أنبياء ؟ قال لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقد توسع بعض المفسرين في هذه المسألة وعدوها مشكلة لظنهم ان اللعب غير جائز وقوعه من الانبياء . والتحقيق ان من اللعب ماهو نافع فهو مباح أو مستحب ، ومنه ملاعبة الرجل لزوجه وملاعبتها له كما ورد في الحديث الصحيح ، وأن اخوة يوسف لم يكونوا أنبياء يومئذ ولا بعده كما حققناه في محله . وان من التنطع والغفلة استشكال اللعب المباح في نفسه ممن شهد الله عليهم بالكيد لأخيهم والائتمار بقتله وتعمد إيذائه وفجيعة أبيهم به وكذبهم عليه وغير ذلك من كبائر المعاصي !!

١٣ - ﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي قال أبوهم جوابا لهم إني ليحزنني ذهابكم به بمجرد وقوعه ، والحزن ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه . وفعله من باب قتل في لغة قريش وتعديه تميم بالهمزة واللام في قوله ليحزنني للابتداء ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ والخوف ألم النفس مما يتوقع من مكروه قبل أن يقع ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ أي في حال غفلة منكم عنه واشتغال عن مراقبته وحفظه بلعبكم ، قيل لو لم يذكر خوفه هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولعله قاله من باب الاحتياط أو الاعتذار بالظواهر ، وإن كان يعلم حسن عاقبته في الباطن ، على

علمه هذا كان مجملا مبهما ومقيداً بالاقدار المجهولة كما أشرنا اليه من قبل

١٤ ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي والله لئن اختطفه الذئب من بيننا وأكله والحال اننا جماعة شديدة القوى تعصب بنا الامور ، وتكفى بيأسنا الخطوب ﴿إنا إذن لخاسرون﴾ وخائبون في اعتصابنا أو لهالكون لا يصح أن نعد من الاحياء الذين يعتد بهم ويركن اليهم ، وهذه الجملة جواب للقسم أغنى عن جواب الشرط

أجابوه عما يخافه بما يرجون أن يطمأنه ، وأما حزنه فلا جواب عنه لانه في حد ذاته لابد منه وليس في استطاعتهم منعه ، إذ هو لازم لفراقه له ولو فراقا قليلا فيه منفعة ليوسف في صحته بترويض جسمه في ضحى الشمس وهبوب الرياح وحركة الاعضاء في زمن قصير يعود بعده فيزول حزنه ويكون سروره مضاعفا لو صدقوا

---

(١٥) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٦) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٧) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٨) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

هذه الآيات الاربع في بيان ما نفذوا به عزمهم بالفعل ، وما اعتذروا به لابيهم من كذب ، وما قابلهم من تكذيب وصبر ، واستعانة بالله عز وجل ، قال

١٥ ﴿فلما ذهبوا به﴾ في الغد من ليلتهم التي استنزلوا فيها أباه عن امساكه

عنده ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ أي أزمعوه وعزموا عليه عزما اجماعيا لا تردد فيه بعد ما كان من اختلافهم قبل في قتله أو تغريبه، وجواب «لما» محذوف للعلم به مما قبله ومما بعده وتقديره نفذوه بأن ألقوه في غيابة ذلك الجب بالفعل ﴿ وأوحينا اليه ﴾ عند إلقائه فيه وحيا إلهاميا علم أنه منا مضمونه: وربك ﴿ لتنبأنهم بأمرهم هذا ﴾ معك إذ يظهرك الله عليهم ويذلهم لك ويجعل رؤياك حقا ﴿ وهم لايشعرون ﴾ يومئذ بما آتاك الله، أو الآن بما يؤتيك في عاقبة هذه الفعلة التي فعلوها بك، أو بهذا الوحي في الجب وهو المرتبة الاولى من مراتب التكليم الالهي للانبياء بعد التمهيد له بالرؤيا الصادقة. وقد هون الله تعالى على يوسف مصيبته به فعلم أنها مصيبة في الظاهر نعمة في الباطن، وقد نقلوا عن السدي أن إخوة يوسف طغوا في القسوة عليه والتنكيل به فقالوا وفعلوا مالا يصدر مثله إلا عن رعاع الناس وأراذل المجرمين الظالمين، وما هي إلا الاسرائيليات المنفرة من الاسلام والمسلمين

١٦ ﴿ وجاؤا أباهم عشاء يبكون ﴾ أي جاؤه في وقت العشاء إذ خالط سواد الليل بقية بياض النهار فحاله حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يبغون وقد بينه تعالى بقوله:

١٧ ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي ذهبنا من مكان اجتماعنا الى السباق يتكلف كل منا أن يسبق غيره، فالاستباق تكلف السبق وهو الغرض من المسابقة والتسابق بصيغتي المشاركة التي يقصد بها الغلب، وقد يقصد لذاته أو لغرض آخر في السبق ومنه (فاستبقوا الخيرات) فهذا يقصد به السبق لذاته لا للغلب، وقوله الآتي في هذه السورة (واستبقا الباب) كان يقصد به يوسف الخروج من الدار هربا من حيث تقصد امرأة العزيز باتباعه إرجاعه، وصيغة المشاركة لاتؤدي هذا المعنى، ولم يفطن الزمخشري علامة اللغة ومن تبعه لهذا الفرق الدقيق

﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ من فضل الثياب وماعون الطعام والشراب

(مثلا) بحفظه إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذي يرهق به قوانا ﴿ فأكله الذئب ﴾ إذ أوغلنا في البعد عنه فلم نسمع صراخه واستغاثته ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي بمصدق لنا في قولنا هذا لاتهامك إيانا بكراهة يوسف وحسدنا له على تفضيلك إياه علينا في الحب والعطف ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ في الامر الواقع أو نفس الامر، أو ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا في هذا الخبر لشدة وجدك بيوسف

١٨ ﴿ وجاؤا على قميصه بدم كذب ﴾ المراد من هذه الجملة الفذة في بلاغتها أنهم جاؤا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف يدعون أنه دمه ليشهد لهم بصدقهم فكان دليلا على كذبهم ، فنكر الدم ووصفه باسم الكذب مبالغة في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمه حتى كأنه هو الكذب بعينه ، فالعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة كما يقولون شاهد عدل، ومنه * فهن به جود وأنتم به بخل * وقال « على قميصه » ليصور للقارىء والسامع أنه موضوع على ظاهره وضعا متكلفا ولو كان من أثر افتراس الذئب له لكان القميص ممزقا والدم متغلغلا في كل قطعة منه ، ولهذا كله لم يصدقهم ﴿ قال بل سولت لكم انفسكم امراً ﴾ هذا إضراب عن تكذيب صريح تقديره : إن الذئب لم يأكله بل سهلت لكم الامارة بالسوء أمراً إمراً ، وكيداً نكراً ، وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترفتموه ، أي هذا أمركم وأما أمري معكم ومع ربي ﴿ فصبر جميل ﴾ أو فصبري صبر جميل لا يشوه جماله جزع اليائسين من روح الله ، القانطين من رحمة الله ، ولا الشكوى إلى غير الله ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ من هذه المصيبة لا أستعين على احتمالها غيره أحدا منكم ولا من غيركم

هذا هو الفصل الاول من قصة يوسف وهو صفوة الحق من أحسن القصص بما فيه من الدقة والعبرة ، وقد شوهه رواة الاساطير والمفتريات الاسرائيلية بما ظنوا أنه من أخبار التوراة وما هو منها ومن شاء فليقرأ هذا الفصل من قصة يوسف في سفر التكوين ليرى الفرق البعيد بين كلام الله وكلام البشر ، وليعلم المغرور

بما نقله المفسرون من الاسرائيليات فيها كالسدي الكبير الذي هو أقل كذبا وأكثر إتقانا لاساطيره من السدي الصغير ، أن كل ما فيها من الزيادة لا أصل له عند اهل الكتاب ، ولا هو مروي عن نبينا صلى الله عليه وسلم فهو كذب صراح (*)

(*) الفصل أو الاصحاح ٣٧ من سفر التكوين

وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه في أرض كنعان ٢ هذه مواليد يعقوب إذ كان يوسف ابن سبع عشرة سنة وكان يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه . وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم ٣ وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لانه ابن شيخوخته ، فصنع له قميصا ملونا ٤ فلما رأى اخوته ان أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ٥ وحلم يوسف حلما وأخبر اخوته فازدادوا ايضا بغضا له ٦ فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت ٧ فها نحن حازمون حزما في الحقل واذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي ٨ فقال له اخوته ألعلك تملك علينا ملكا ام تتسلط علينا تسلطا ، وازدادوا ايضا بغضا له من اجل احلامه ومن اجل كلامه ٩ ثم حلم ايضا حلما آخر وقصه على اخوته ، فقال اني قد حلمت حلما أيضا واذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لي ١٠ وقصه على ابيه وعلى اخوته فانتهره ابوه وقال له ماهذا الحلم الذي حلمت ؟ هل نأتي انا وأمك واخوتك لنسجد لك الى الارض ١١ فحسده اخوته وأما أبوه فحفظ الامر ١٢ ومضى اخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم (١) ١٣ فقال اسرائيل ليوسف أليس اخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فأرسلك اليهم ، فقال له ها أنذا ١٤ فقال له اذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً ، فأرسله من وطاء حبرون (٢) فأتى الى شكيم ١٥ فوجده رجل واذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلا ماذا تطلب ١٦ فقال انا طالب اخوتي اخبرني اين يرعون ١٧ فقال الرجل قد ارتحلوا من هنا لاني سمعتهم يقولون لنذهب الى دوثان ، فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان ١٨ فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه ١٩ فقال =

---

(١) وشكيم هذه في محل نابلس اليوم (٢) هي مدينة الخليل، والوطاء الوادي

(١٩) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّـٰهِدِينَ

= بعضهم لبعض هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم ٢٠ فالآن هلم نقتله و نطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش رديء أكله فنرى ماذا تكون أحلامه ٢١ فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال لا نقتله ٢٢ وقال لهم رأوبين لا تسفكوا دما اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً ، لكي ينقذه من أيديهم ليرده الى أبيه ٢٣ فكان لما جاء يوسف الى إخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه ، القميص الملون الذي عليه ٢٤ وأخذوه وطرحوه في البئر، وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ٢٥ ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا واذا قافلة اسماعيليين مقبلة من جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء و بلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها الى مصر ٢٦ فقال يهوذا لاخوته ما الفائدة ان نقتل أخانا ونخفي دمه ٢٧ تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه اخونا ولحمنا فسمع له اخوته ٢٨ واجتاز رجال مديانيون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر و باعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف الى مصر ٢٩ ورجع رأوبين الى البئر واذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ٣٠ ثم رجع الى اخوته وقال الولد ليس موجودا وانا الى أين أذهب ٣١ فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص في الدم ٣٢ وأرسلوا القميص الملون وأحضروه الى أبيهم وقالوا وجدنا هذا حقق أقميص ابنك هو أم لا ؟ ٣٣ فتحققه وقال قميص ابني وحش رديء أكله ، افترس يوسف افتراسا ٣٤ فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحا على حقويه وناح على ابنه أياما كثيرة ٣٥ فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى ان يتعزى وقال اني أنزل الى ابني نائحا الى الهاوية وبكى عليه أبوه ٣٦ وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط

هاتان الآيتان في استعباد قافلة من التجار ليوسف (ع م) والاتجار به

١٩ ﴿ وجاءت ﴾ ذلك المكان الذي كانوا فيه ﴿ سيارة ﴾ صيغة مبالغة من السير (كجوالة وكشافة) أي جماعة أو قافلة وفي سفر التكوين أنهم كانوا من الاسماعيليين أي من العرب ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ المختص بورود الماء للاستقاء لهم ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسله ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف فلما خرج ورآه ﴿ قال يا بشرى هذا غلام ﴾ يبشر به جماعته السيارة. قرأها الجمهور يا بشراي بالاضافة إلى ياء المتكلم والكوفيون بدونها وأمال ألفها حمزة والكسائي. ونداء البشرى معناه أن هذا وقتها وموجبها فقد آن لها أن تحضر، ومثله قولهم: يا أسفا ويا أسفي، ويا حسرتا ويا حسرتي، إذا وقع ما هو سبب لذلك. فاستبشر به السيارة ﴿ وأسروه بضاعة ﴾ أي أخفوه من الناس لئلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لاجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم . والبضاعة ما يقطع من المال ويفرز للاتجار به، مشتق من البضع وهو الشق والقطع ومنه البضعة والبضع من العدد وهي من ثلاث إلى تسع والبضعة من اللحم وهي القطعة. وما قيل من أن الذين أسروه هم الوارد الذي استخرجه ومن كان معه دون سائر السيارة أو ان الضمير في أسروه لاخوة يوسف فهو خلاف الظاهر ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله إخوة يوسف فلكل منهم أرب في يوسف: السيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به، وإخوة يوسف أمرهم مع أبيهم في إخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذئب إياه معلوم وأنه كيد باطل. وحكمة الله تعالى فيه فوق كل ذلك

٢٠ ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ شرى الشيء يشريه باعه واشتراه ابتاعه، أي باعوه بثمن قليل ناقص عن ثمن مثله على انه ليس له مثل، هو دراهم لادنانير، معدودة لاموزونة، وانما يعد القليل ويوزن الكثير، وكانت العرب تزن ما بلغ الاوقية وهي أربعون درهما فما فوقها وتعد مادونها، ولهذا

يعبرون عن القليلة بالمعدودة ، والبخس في اللغة الناقص والمعيب (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) وروي تفسيره هنا بالحرام وبالظلم لأنه بيع حر فيكون وصفه بدراهم معدودة مستقلا لا تفسيراً لبخس وظاهر النظم ان الذين شروه هم السيارة وفي سفر التكوين أن اخوته قرروا بيعه للاسماعيليين ، وقد أخرجه من الجب جماعة من مدين وباعوه لهم وقد بعد ذكرهم ، ويحتمل أن يكون لفظ شروه قد استعمل بمعنى اشتروه وهو مسموع ، ويكون المراد أنهم اشتروه من اخوته بثمن بخس ثم باعوه في مصر بثمن بخس أيضاً ، وهو ادماج من دقائق الايجاز ، وأما الثمن البخس الذي بيع به ففي سفر التكوين أنه كان عشرين (شاقلا) من الفضة وقدر علماء التاريخ القديم الشاقل بخمسة عشر غراما من الوزن العشري اللاتيني المعروف في عصرنا فيكون ثمنه ٣٠٠ غرام من الفضة وهي تقرب من ٩٤ درهما من دراهمنا اليوم، وعن ابن مسعود (رض) أنه عشرون درهما ولعله سمعه عن اليهود

فظن أن العشرين عندهم هي الدراهم عند العرب ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ أي وكان هؤلاء الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلا يظهر من يطالبهم به لانه حر، والثمن لم يكن مقصوداً لهم ولهذا قنعوا بالبخس منه

حادثة يوسف مع امرأة العزيز

(٢١) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٢) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

(هاتان الآيتان تمهيد للقصة في وجهة نظر مشتريه فيه وتمكين الله له وتعليمه وغلبه على أمره وإيتاؤه حكما وعلما وشهادته باحسانه)

٢١ ﴿ وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه ﴾ لم يبين القرآن اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر ولا منصبه ولا اسم امرأته لان القرآن ليس كتاب حوادث وتاريخ ، وانما قصصه حكم ومواعظ وعبر وتهذيب، ولكن وصفه النسوة فيما يأتي بلقب العزيز وهو اللقب الذي صار لقب يوسف بعد أن تولى إدارة الملك في مصر فالظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك، وللمفسرين أقوال في اسمه واسمها واسم ملك مصر ليس للقرآن شأن فيها . وفي سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك وناظر السجون، وان اسمه فوطيفار، ووصف فيه بالخصي ولكن الخصيان لا يكون لهم أزواج فقيل في تصحيحه انه لقب لا يقصد به هذا المعنى. وقد تفرس هذا الوزير الكبير في يوسف أصدق الفراسة إذ أوصى امرأته باكرام مثواه ، والمثوى مصدر واسم مكان من ثوى بالمكان يثوي (كرمى يرمي) ثواء أي أقام ، فتضمنت هذه الوصية إكرامه وحسن معاملته في كل مايختص باقامته بحيث يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم، وعلل ذلك بما يدل على أمله ورجائه فيه وهو ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ بالقيام ببعض شئوننا الخاصة أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنباهة ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ فيكون قرة عين لنا ، ووارثا لمجدنا ومالنا ، إذا تم رشده وصدقت فراستي في نجابته ، وفهم من هذا الرجاء أن العزيز لم يكن له ولد وما كان يرجو أن يكون له ، وروي أنه كان عقيما وكان رجاؤه هذا كرجاء امرأة فرعون موسى فيه من بعده ، وكانت صالحة ملهمة، وأما العزيز فكان ذكياً صادق الفراسة فاستدل من كمال خلق يوسف وخلقه، وذكائه وحسن خلاله ، على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته ، خير متمم لحسن استعداده الفطري ، إذ لا يفسد أخلاق الأذكياء إلا البيئة الفاسدة وسوء

القدوة ، وما كان الا صادق الفراسة ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الارض ﴾ أي وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر كان هذا العطف عليه والرجاء فيه من هذا العزيز مبدأها ليقع له في بيته ثم في السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقي الملك فيكون وسيلة للوصول اليه ﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث ﴾ كتعبير الرؤيا ومعرفة حقائق الامور ما ينتهي به إلى الغاية من هذا التمكين ، وقوله للملك (اجعلني على خزائن الارض إني حفيظ عليم) وقول الملك له (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي على كل أمر يريده ويقدره فلا يغلب على شيء منه بل يقع كما أراد ، فكل ما وقع ليوسف من اخوته ومن مسترقيه وبائعيه ومن توصية الذي اشتراه لامرأته باكرام مثواه ومما وقع له مع هذه المرأة وفي السجن قد كان من أسباب ما أراده تعالى له من تمكينه في الارض ، وان كان ظاهره على خلاف ذلك ، ويجوز أن يكون المعنى أو الله غالب على أمر يوسف فهو يدبره ويلهمه الخير ولا يكله الى تدبير نفسه واتباع هواه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ انه تعالى غالب على أمره بل يأخذون بظواهر الامور ، كما استدل اخوة يوسف بابعاده على أن يخلو لهم وجه أبيهم ويكونوا من بعده عنهم قوما صالحين . ويقابل الاكثر في هذا المقام يعقوب عليه السلام ، فقد كان يعلم ان الله غالب على أمره ، وأقواله صريحة في الدلالة على علمه ما تقدم منها وما تأخر في هذه القصة ، ولكن علمه كلي إجمالي لا يحيط بتفصيل الجزئيات المخبوءة في مطاوي الاقدار كما قلنا من قبل

بدئت هذه القصة ببيان إيتاء الله الحكم والعلم ليوسف عند استكمال سن الشباب وبلوغ الاشد ، وان هذا العطاء جزاء منه سبحانه له على إحسانه في سيرته منذ سن التمييز لم يكن مسيئا في شيء قط ، وختمت بشهادته تعالى بما كان من اقتناع العزيز ببراءته من الخطيئة والتياث امرأته بها وحدها قال عز وجل :

٢٢ ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أي رشده وكمال قوته وشدته باستكمال نموه البدني والعقلي ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ أي وهبناه حكما إلهاميا وعقليا بما يعرض له أو عليه

من النوازل والمشكلات مقرونا بالحق والصواب، وعلما لدنيا وفكريا بحقائق ما يعنيه من الامور ، وهذه السن في عرف الاطباء تتم في خمس وعشرين سنة، ولأهل اللغة ورواة التفسير فيها أقوال فمن عكرمة أنها ٢٥ سنة وعن ابن عباس انها ثلاث وثلاثون سنة ولعله أخذه من قوله تعالى في كمال البنية الانسانية (حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة) فجعلها درجتين بلوغ الاشد وبلوغ الاربعين وهي سن الاستواء كما قال في موسى (٢٨ : ١٤ فلما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) فالاول مبدأ استكمال النمو العضلي والعصبي والثاني مستواه، وبه يتم الاستعداد للنبوة ووحي الرسالة وقد ثبت عن علماء النفس والاجتماع ان الانسان يظهر استعداده العقلي والعلمي بالتدريج حتى اذا بلغ خمساً وثلاثين سنة لا يظهر فيه شيء جديد من العلم الكسبي غير ما ظهر من بدء سن التمييز الى هذه السن ، وإنما يكمل ما كان ظهر منه اذا هو ظل مزاولا له ومشتغلا بتكميله ، وقد بينا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٠ : ١٦ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وفصلناه في كتاب الوحي المحمدي وقد ظهر حكم يوسف وعلمه

بعد بلوغ أشده في مصر كما يأتي تفصيله في مواضعه ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي وكذلك شأننا وسنتنا في جزاء المتحلين بصفة الاحسان، الثابتين عليه بالاعمال، الذين لم يدنسوا فطرتهم ولم يدسوا أنفسهم بالاساءة في أعمالهم ، نؤتيهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل ، والعلم الذي يزينه ويظهره القول الفصل، فيكون لكل محسن حظه من الحكم الصحيح والعلم النافع بقدر إحسانه ، ومما يكون له من حسن التأثير في صفاء عقله ، وجودة فهمه وفقهه ، غير مايستفيده بالكسب من غيره ، لا يؤتى مثله المسيئون باتباع أهوائهم وطاعة شهواتهم ، وقال بن اجرير الطبري : وهذا وان كان مخرج ظاهره على كل محسن فالمراد به محمد ﷺ يقول له عز وجل كما فعلت هذا بيوسف من بعد ما لقي من اخوته ما لقي... فكذلك أفعل بك فأنجيك من مشركي قومك الذين يقصدونك بالعداوة وامكن لك في الارض الخ وأقول لاشك أن هذه السنة في جزاء المحسنين عامة ولكل محسن منها بقدر إحسانه، وإذن يكون حظ محمد ﷺ أعظم من حظ يوسف وغيره من الانبياء عليهم السلام

(٢٣) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ: هَيْتَ لَكَ، قَالَ مَعَاذَ اللهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّلِمُونَ (٢٤) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٥) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(مسألة المراودة والهم و المطاردة)

٢٣ ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ هذه الجملة معطوفة على جملة وصية العزيز لامرأته باكرام مثواه وما عللها به من حسن الرجاء فيه، وما بينه الله تعالى من عنايته به وتمهيد سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض، يقول ان هذه المرأة التي هو في بيتها نظرت اليه بغير العين التي نظر اليه بها زوجها، وأرادت منه غير ما أراده هو وما أراده الله من فوقهما، هو أراد ان يكون قهرمانا أو ولداً لهما، والله أراد أن يمكن له في الارض ويجعله سيد البلاد كلها، وهي أرادت ان يكون عشيقا لها، وراودته عن نفسه أي خادعته عنها وراوغته لأجل ان يرود أو يريد منها ماتريد هي منه مخالفا لارادته هو وإرادة ربه، والله غالب على أمره، قال في المصباح المنير: أراد الرجل كذا ارادة وهو الطلب والاختيار، وراودته على الامر مراودة ورودا من باب قاتل طلبت منه فعله وكأن في المراودة معنى المخادعة لان المراود يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه. وقال الراغب:

المراودة أن تنازع غيرك في الارادة فتريد غير ما يريد، أو ترود غير ما يرود، وذكر شواهد الآيات في هذه القصة ومنها قول إخوة يوسف له (سنراود عنه أباه) أي نحتال عليه ونخدعه عن إرادته ليرسل أخاه معنا. وقال في أساس البلاغة: وراوده عن نفسه خادعه عنها وراوغه، وقال في الكشاف المراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب، كأن المعنى خادعته عن نفسه أي فعلت ما يفعل المخادع عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحيل لمواقعته إياها اهـ ولو رأت منه أدنى ميل اليها وهي تخلو به في مخادع بيتها لما احتاجت إلى مخادعته بالمراودة، ولما خابت في التعريض له بالمغازلة والمهازلة، تنزلت إلى المكاشفة والمصارحة، إذ كان كل ما سبقه منها وحدها لم يشاركها فيه،

﴿وغلقت الابواب﴾ أي أحكمت اغلاق باب المخدع الذي كانا فيه وباب البهو الذي يكون أمام الحجرات والغرف في بيوت الكبرا. وباب الدار الخارجي، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أخرى متداخلة ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم أقبل وبادر، وزيادة «لك» بيان للمخاطب كما يقولون هلم لك وسقيا لك. واقتصر على هذا في التنزيل، وهو منتهى النزاهة في التعبير، والله أعلم بما زادته من الاغراء والتهييج الذي تقتضيه الحال، ونقل رواة الاسرائيليات عنها وكذا عنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة أنه كذب فان مثله لا يعلم الا من الله تعالى أو بالرواية الصحيحة عنها أو عنه ولا يستطيع أن يدعي هذا أحد كما يأتي قريبا وهيت اسم فعل قريء بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبضمها كحيث، وروي انها لغة عرب حوران، وكان سبب اختيارها انها أخصر ما يؤدي المراد بأكمل النزاهة اللائقة بالذكر الحكيم، وهو ما لم يدمقله أولئك الرواة لما يخالفه ويناقضه ﴿قال معاذ الله﴾ أى أعوذ بالله معاذاً وأتحصن به فهو يعيذني أن أكون من الجاهلين الفاسقين، كما قال بعد ان استعانت عليه بكيد صواحبها من النسوة (وإلا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين)

وجملة قال معاذ الله الخ بيان مستأنف لجواب يوسف مبني على سؤال تقديره: وماذا قال بعد تسفل المرأة وهي سيدته إلى هذه الدركة من التذلل له ؟ وهو كما قالت

مريم ابنة عمران للملك الذي تمثل لها بشراً سويا (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) وعلل هذه الاستعاذة بقوله ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أي إنه تعالى ولي أمري كله أحسن مقامي عندكم وسخركم لي بما وفقني له من الامانة والصيانة فهو يعيذني ويعصمني من عصيانه وخيانتكم ، ويحتمل أنه أراد بربه مالكه العزيز في الصورة وان كان حرا مظلوما في الحقيقة ، كما يقال رب الدار ، وكان من عرفهم اطلاقه على الملوك والعظماء كما يأتي في قوله عليه السلام لساقي الملك في السجن (إذكرني عند ربك) ولكن الله عاقبه انه لم يذكر حينئذ ربه ، فكان نسيانه له سببا لطول مكثه في السجن كما يأتي ، ثم إنه قال لرسول الملك . اذ جاءه يطلبه لأجله (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم) وعلى هذا القول وقد جرى عليه الجمهور يكون الضمير في « انه » ما يسمونه ضمير الشأن والقصة أي إن الشأن الذي أنا فيه هو ان سيدي المالك لرقبتي قد أحسن معاملتي في اقامتي عندكم وأوصاك باكرام مثواي فلن أجزيه على إحسانه بشر الاساءة وهو خيانته في أهله، وهذا التفسير تعليل لرد مراودتها بعد الاستعاذة بالله منها، لا تعليل للاستعاذة نفسها كالأول، والفرق بينهما دقيق لما بينهما من العموم في الاول والخصوص في الثاني . ثم علل امتناعه بما هو خاص بنزاهة نفسه فقال ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ لانفسهم وللناس كالخيانة لهم والتعدي على أعراضهم وشرفهم، لا يفلحون في الدنيا ببلوغ مقام الامامة الصالحة والرياسة العادلة ، ولا في الآخرة بجوار الله ونعيمه ورضوانه . . وفي جملة الجواب من الاعتصام والاعتزاز بالايمان بالله والامانة للسيد صاحب الدار والتعريض بخيانة امرأته له المتضمن لاحتقارها ما أضرم في صدرها نار الغيظ والانتقام، مضاعفة لنار الغرام، وهو ما بينه تعالى بقوله مؤكداً بالقسم لانه مما ينكره الاخيار من شرور الفجار :

٢٤ ﴿ولقد همت به﴾ أي وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها، وهي في نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه ، ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ،

ومراودة عن نفسها لامراودة ، حتى ان حماة الانوف من كبراء الرجال ، ليطأطئون الرءوس لفقيرات الحسان ربات الجمال ، ويبذلون لهن مايعتزون به من الجاه والمال ، بل إن الملوك ليذلون أنفسهم لمملوكاتهم وازواجهم ولا يأبون ان يسموا أنفسهم عبيداً لهن ، كما روي عن بعض ملوك الاندلس :

نحن قوم تذيبنا الاعين النجـ ـل على أننا نذيب الحديدا
فترانا لدى الكريهة أحرا راً وفي السلم للملاح عبيداً

ولكن هذا العبد العبراني الخارق للطبيعة البشرية في حسنه وجماله ، وفي جلاله وكماله ، وفي إبائه وتألهه ، قد عكس القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها في إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الاميرة (الارستقراطية) من عرش عظمتها وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادمها ، بما هونه عليها : قرب الوساد ، وطول السواد (١) والخلوة من وراء الاستار والابواب ، حتى انها لتراوده عن نفسه في مخدع دارها ، فيصد عنها علواً ونفاراً ، ثم تصارحه بالدعوة إلى نفسها فيزداد عتواً واستكباراً ، معتزاً عليها بالديانة والامانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها وزوجها وحقه عليها أعظم ، ان هذا الاحتقار لا يطاق ، ولا علاج لهذا الفاتن المتمرد إلا تذليله بالانتقام ، هذا ماثار في نفس هذه المرأة المفتونة بطبيعة الحال (كما يقال) وشرعت في تنفيذه أو كادت ، بأن همت بالبطش به في ثورة غضبها ، وهو انتقام معهود من مثلها وممن دونها في كل زمان ومكان ، وأكثر مما ترويه لنا منه قضايا المحاكم وصحف الاخبار ، وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله وهو قوله تعالى ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ولكنه رأى من برهان ربه في سريرة نفسه ، ماهو مصداق قوله تعالى (والله غالب على أمره) وهو إما النبوة التى تملي الحكم

١) السواد بالفتح شخص الانسان وبالكسر مصدر ساوده اذا ساره فقرب سواده من سواده أي شخصه من شخصه . والكلمة لابنة الخص اعتذرت بها عن نفسها بعد ان فتنت فقيل لها : لم ... وأنت سيدة قومك ؟ فقالتها فارسلتها مثلا يجب أن يعتبر به الذين يتساهلون في السماح لنسائهم بالخلوة بالرجال من الخدم فضلا عن غيرهم

والعلم اللذين آتاه الله إياهما بعد بلوغ الاشد ، وشاهده قوله تعالى (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا) وإما معجزتها كما قال تعالى لموسى في آيتي العصا واليد (فذانك برهانان من ربك) وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا وهي مراقبته لله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا اليه ، وفاقا لما قاله أخوه محمد خاتم النبيين في تفسير الاحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » فيوسف قد رأى هذا البرهان في نفسه ، لاصورة أبيه متمثلة في سقف الدار ، ولا صورة سيده العزيز في الجدار ، ولا صورة ملك يعظه بآيات من القرآن ، وأمثال هذه الصور التي رسمتها أخيلة بعض رواة التفسير المأثور بما لايدل عليه دليل من اللغة ولا العقل ولا الطبع ولا الشرع ، ولم يرو في خبر مرفوع إلى النبي ﷺ في الصحاح ولا فيما دونها ، وما قلناه هو المتبادر من اللغة ووقائع القصة ، ومقتضى ما وصف الله به يوسف في هذا السياق وغيره من السورة ولا سيما قوله في أوله (وكذلك نجزي المحسنين) وما فسر النبي ﷺ به الاحسان ، وقوله في تعليله

﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كذلك فعلنا وتصرفنا في أمره لنصرف عنه دواعي ماأرادته به أخيراً من السوء ، وما راودته عليه قبله من الفحشاء ، بحصانة أو عصمة منا تحول دون تأثير دواعيهما الطبيعية في نفسه ، فلا يصيبه شيء يخرجه من جماعة المحسنين الذين شهدنا له بأنه منهم ، إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يفلحون وشهادته حق

﴿ إنه من عبادنا المخلَصين ﴾ بفتح اللام وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم (٣٨ : ٤٥ واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولي الايدي والابصار ٤٦ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ٤٧ وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) وقد قلنا في أول القصة ، إن يوسف هو الحلقة الرابعة في سلسلتهم الذهبية ، وان أباه بشره بذلك بعد أن قص عليه رؤياه إذ قال له (وكذلك يجتبيك ربك) فالاجتباء هو الاصطفاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (المخلِصين) بكسر اللام . والقراءتان متفقتان متلازمتان فهم مخلصون لله في إيمانهم به وحبهم وعبادتهم له ، ومخلصون عنده بالولاية والنبوة والعناية

والوقاية من كل ما يبعدهم عنه ويسخطه عليهم، والجملة تعليل لصرف الله السوء والفحشاء عنه ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء فانه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه اليهما فيصرف عنهما ، وهمه لأول وهلة بدفع صيالها هم بأمر مشروع وجد مقتضيه مقترنا بالمانع منه وهو رؤيته برهان ربه فلم ينفذه ، فكان الفرق بين همها وهمه أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها من خيبتها واهانته لها فلما رأى أمارة وثوبها عليه استعد للدفاع عن نفسه وهم به، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته مالم تر هي مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذي تتم به حكمته سبحانه وتعالى فيما أعده له، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضي، وتبعته هي مرجحة للمقتضي على المانع حتى صار جزما ، واستبقا باب الدار ، وكان من امرهما مايأتي بيانه في الآية التالية ، ونقدم عليه رأي الجمهور في الهم من الجانبين

﴿ رأى الجمهور فى همت به وهم بها وبيان بطلانه ﴾

ذهب الجمهور المخدوعون بالروايات الى أن المعنى انها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولامانع منها ، وهم هو بمثل ذلك ولولا أنه رأى برهان ربه لاقترفها ، ولم يستح بعضهم ان يروى من أخبار اهتياجه وتهوكه فيه ووصف انهماكه وإسرافه في تنفيذه ، وتهتك المرأة في تبذلها بين يديه ، ما لايقع مثله الا من أوقح الفساق المسرفين المستهترين، الذين طال عليهم عهد استباحة الفواحش وألفتها حتى خلعوا العذار، وتجردوا من جلابيب الحياء، وأمسوا عراة من لباس التقوى وحلل الآداب، كأهل مدنية هذا العصر من الرجال والنساء في مواخير البغاء السرية، ومايقرب منه في حمامات البحر الجهرية، حتى كادوا يعيدون للعالم فجور مدينة (بومباي) الرومانية، التي خسف الله بها وأمطر عليها من براكين النار مثلما أمطر على قرية قوم لوط من قبلها ، فان مثل هذا الذي افتروه في قصة هذا النبي الكريم لا يقع مثله ممن ابتلي بالمعصية أول مرة من سليمي الفطرة ، ولا من سذج الاعراب الذين لم تغلبهم سورة الشهوة الجامحة على حيائهم الفطرى وإيمانهم وحيائهم من نظر ربهم اليهم

فضلا عن نبي عصمه الله ووصفه بما وصف وشهد له بما شهد، وقد بلغ ببعضهم (كالسدي) الجهل بالدين والوقاحة وقلة الادب ان يزعموا ان يوسف عليه السلام لم ير برهانا واحدا بل رأى عدة براهين من رؤية والده متمثلا له منكرا عليه، وتكرار وعظه له، ومن رؤية بعض الملائكة ونزولهم عليه باشد زواجر القرآن بآيات من سوره، فلم تنهنه من شبقه، ولم تنهه عن غيه، حتى كان أن خرجت شهوته من أظافره، ومعنى هذا أنه لم يكف إلا عجزاً عن الامضاء، أفبهذا صرف الله عنه السوء والفحشاء، وكان من عباد الله المخلصين، وأنبيائه المصطفين المجتبين الاخيار ؟

ولئن كان عقلاء المفسرين أنكروا هذه الروايات الاسرائيلية الحمقاء، حماية لعقيدة عصمة الانبياء، فانه لم يكد يسلم أحد من تأثير بعضها في أنفسهم، وتسليمهم لهم ان الهم من الجانبين كان بمعنى العزم على الفاحشة، إلا من خالف قواعد اللغة فقال ان قوله تعالى (وهمّ بها) جواب لقوله (لولا أن رأى برهان ربه) ومن قال إن جوابه محذوف دل عليه ماقبله، فهو على هذين القولين لم يهم بشيء، وهو خلاف المتبادر من العبارة أو ظاهرها، وتأوله بعضهم بأن همه بالفاحشة بمقتضى الداعية الفطرية لا ينافي العصمة وانما ينافيها طاعتها بدليل ما صح في الحديث ان من هم بسيئة ولم يفعلها لم تكتب عليه، وان امتناعه عنها بترجيح داعية الايمان وطاعة الله تعالى مع طغيانها وإلحاحها الطبيعي عليه أدل على الايمان والطاعة من كونه لم يفعلها كراهة لها وعزوفا عنها لقبحها، ولهم تأويلات من هذا ولقد كانوا لولا تأثير الرواية في غنى عنها،

والتأويل الاخير أوله مقبول وآخره مردود، فههنا مرتبتان إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس وكبحا لها خوفا من الله تعالى، وهي مرتبة الصالحين الابرار، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها حياء من الله ومراقبة له واستغراقا في شهوده، وهي مرتبة الصديقين والنبيين الاخيار، الذين اذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع، بالصورة المحرمة في الشرع، عارضها من وجدان الايمان، وتجلي الرحمن، ما تغلب به روحانيتهم الملكية، على طبيعتهم الحيوانية، وهذا مما قد يحصل لمن دون الانبياء منهم، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين قلوبهم، وينعكس نوره عن

بصائرهم فيلوح لأبصارهم ، كما أشرنا اليه في تفسيره آنفا ؟

ولهذه المرتبة درجات منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال، أو فقد الشعور بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ، ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع فيغلب أقواها أضعفها . حتى ان من الاباحيين والاباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبيحها لمن يراوده عنها، لاخوفا من الله ولاحياء منه لانه غير مؤمن به أو بعقابه، بل وفاء لزوج أو عشيق عاهده على الاختصاص به فصدقه

حدثنا مصور سوري كان زير نساء فاسق أنه كان في بعض الولايات المتحدة الامريكانية فأعلن في بعض الجرائد أنه يطلب امرأة جميلة لاجل أن يصورها كما يشاء بجعل معين من المال وهذا معهود عند الافرنج، فجاءه عدة من الحسان اختار إحداهن وخلا بها في حجرته الخاصة وأوصد بابها ، وأمرها بالتجرد من جميع ثيابها، فتجردت فطفق يصورها على أوضاع مختلفة من انتصاب وانحناء ، وميل والتواء، وإقبال وإدبار ، وهو لايفكر في غير إتقان صناعته ، فعرض لها دوار في رأسها ، فجلست على أريكة للاستراحة فجلس بجانبها، وأنشأ يلاعبها ويداعبها وهي ساكنة ساكتة ، فتنبه في نفسه من الشعور ما كان غافلا أو نائما ، فراودها عن نفسها ، فتمنعت بل امتنعت ، فعرض عليها المال فأعرضت ، فقال لها أنت حرة في نفسك ولكني أرجو منك أن تجيبيني عن سؤال علمي هو مابيان سبب هذا الامتناع ؟ قالت سببه أنني عاهدت رجلا يحبني وأحبه على أن يكون كل منا للآخر لايشرك في الاستمتاع به أحداً ، ولا يبتغي به بدلا ، فقال لها اني أهنئك وأحترم وفاءك هذا ، ثم أتم صناعته ونقدها الجعل المعين فأخذته وانصرفت

والراجح عندي ان هذه المرأة لم تشته مواتاة هذا الرجل فتجاهد نفسها على الامتناع ، وان المانع من اشتهائه توطين نفسها على الوفاء لعشيقها الاول حتى لم تعد تتوجه الى الاستمتاع بغيره ، وتوجيه النفس الى الشيء أو عنه هو صاحب السلطان الأعلى على الارادة ، وتربية الارادة هي أصل التخلق بالفضائل والتخلي عن الرذائل باتفاق الحكماء والصوفية ، ويسمي هؤلاء سالك طريق الحق مريدا ،

والواصل إلى غايته مرادا ، أي مجتبى مختارا ، وهو لا يكون على كماله الا لاصحاب الايمان اليقيني الوجداني ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف ، كما قال استاذنا في رسالة التوحيد ، ولقد عجبنا أن أنكر علينا بعض المحرومين عن هذا ممن نعدهم بحق من الصالحين قولنا في المقصورة الرشيدية فيمن امتنع من رقية صدر فتاة حسناء: أنت فتى خاف مقام ربه مازال ينهى نفسه عن الهوى

لم يقترف فاحشة قط ولم يعزم ولا همّ بها ولا نوى

بغرة منها وصفو نية في معزل تشهيه اقصى ما اشتهى

مما يمنيه به شيطانه من حيث لا يطمع منه في خنا

لكنه استعصم راويا لها ما امر الله به وما نهى

إذ ظن المنكر فيه انه فضل نفسه على يوسف عليه السلام ، وأين هذا من ذاك (*)

وجملة القول ان أعظم مزايا البشر في قوة الارادة فلولاها لكان الانسان كالحيوان الاعجم عبد الطبيعة ، ولذلك كانت المراودة احتيالا لتحويل الارادة وجعلها خاضعة للمراود ، وإنما يظفر فيها من كانت إرادته أقوى ، وفوق ذلك عناية الله تعالى (فتأمل وتدبر)

فاذا كان في أهل الاباحة والحرية المطلقة من تملك إرادتها ولا تلين لمراودها ، ولا يغريها المال وهو المعبود الاكبر لامثالها في بلادها ، فيحملها على نقض عهدها في مثل تلك الخلوة وذلك التجرد بين يدي مصورها ، ولقد كان من أجمل الشباب ، وأبرعهن في تصبي النساء ، أفيكثر أو يستغرب في رأي أولئك الرواة أن يكون يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم في وراثته الفطرية والادبية ومقام النبوة عن آبائه الاكرمين ، وما اختصه به ربه وكونه هو الغالب على أمره من تربيته وعنايته ، وما شهد له به من العرفان والاحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعي السوء والفحشاء ، وما قص علينا من شهادة تلك المرأة له على نفسها بقولها (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أي استمسك بعروة العصمة الوثقى التي لا انفصام لها ، ثم ما شهد له به صواحبها من المراودات من قولهم (حاش لله ما علمنا عليه

(*) راجع هذه المسألة في ص ٥٤٥ من جزء التفسير التاسع وما قبلها وما بعدها

من سوء) أي ادنى شيء سيء، ثم ما أيدت به شهادتهن من قولها (الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أيكثر عليه أو يستغرب منه أن يكون أملك لنفسه من تلك المرأة الاباحية، أو بمنجاة من الهم الذي زعموه، وصوروه بشر ما تصوروه، أو بما صوره لهم مضلوهم من زنادقة اليهود ليلبسوا عليهم دينهم، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم؟ ثم يكون منتهى شوط المنكرين عليهم أن يتأولوا تفسيرهم تأويلا، والقرآن يتبرأ منه بلغته وأسلوبه وأدبه وهدايته والعبرة المرادة منه لخاتم رسله والمؤمنين به، ولا يغرنك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين، فلو لم يكن لنا من الادلة على وضعها عليهم او تصديقهم لقول بعض اليهود فيها إلا بطلان موضوعها في نفسه، وكونه من علم الغيب في القصة التي لم يعلم رسول الله منها غير ما قصه الله عليه في هذه السورة كما صرح به في الآية (١٠٢) آخرها - لو لم يكن لنا من أدلة وضعها غير هذا لكفى، فكيف وهي مخالفة للقرآن في لغته كمخالفتها له في هدايته أيضا

رد قول الجمهور في تفسير همها وهمه عليه السلام

فأنا أرد على جميع من فسروا هم المرأة بغير ما اخترته لاهمه وحده، وأقول لولا الغرور بالروايات الباطلة لم يخطر لاحد منهم غيره، أرد عليهم بعبارة القرآن في مدلولها اللغوي فهو حجة عليهم فأقول:

أجمع أهل اللغة على ان الهم انما يكون بالاعمال، لا بالشخوص والاعيان، وتحقيق معناه أنه مقاربة فعل تعارض فيه المانع والمقتضي فلم يقع لرجحان المانع، وهو الموافق لقول علماء الاصول في التعارض الأعم، ولكن رجحان المانع هنا قد يكون بارادة صاحب الهم ومنه هم يوسف، وقد يكون من غيره ومنه هم هذه المرأة: كان همهما واحدا وهو البطش بالضرب أو ما في معناه، وكان المانع منه إرادته هو وعجزها هي بهربه، وهاك الشواهد على القسمين

حكى الله عن المشركين في سورتي الانفال والتوبة أنهم (هموا باخراج الرسول) صلى الله عليه وسلم من بلده مكة ولكنهم لم يفعلوا لانهم خافوا ان يستجيب له غيرهم من العرب فيقوى أمره فرجحوا المانع بارادتهم، وحكى عن المنافقين أنهم (هموا بما لم ينالوا) إذ حاولوا أن

يشردوا به بعيره في العقبة منصرفه من غزوة تبوك ، فلم ينالوا مرادهم عجزا منهم وحفظا من ربه له ﷺ وفي معناه قوله تعالى له (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك) ولكنه قدم هنا لولا فكان دليلا على أنهم فكروا في ذلك وما قاربوا. وقال في بعض المؤمنين (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا) أي تتركا المضي مع الرسول للقتال يوم أحد جبنا واتباعا لعبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين ، ولكن غلب عليهما داعي الايمان فلم تفشلا وهو المعبر عنه بقوله تعالى (والله وليهما) فرجحتا المانع من الفشل بالمقتضي للجهاد

وفي المسند والصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ان النبي ﷺ هم أن يأمر رجلا يصلي بالناس ثم يأمر من يحرق على المتخلفين عن صلاة الجمعة بيوتهم - وفي حديث ابي هريرة عند أبي داود والترمذي « ثم آتي قوما يصلون في بيوتهم ليست بهم علة فأحرقها عليهم » يعني ﷺ انهم يستحقون هذا حتى كاد يفعله ولكنه امتنع ترجيحا للمانع على المقتضى

إذا علم هذا فمن الجلي أنه لايصح تفسير (ولقد همت به) بهذا المعنى الذى أثبتناه بشواهد الكتاب والسنة الا بما قررناه ، وان ماقاله الجمهور باطل لمخالفته له ، بل للغة القرآن وهدايته ، وإنما خدعتهم به الروايات الباطلة ، وبيانه من وجوه (أولها) ان الهم لايكون الا بفعل للهام والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه ، وهذا التمكين هو الذي يثبت به دخول الزوجية الذي تستحق فيه المرأة النفقة من زوجها كما هو مقرر في الفقه (ثانيها) أن يوسف عليه السلام لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمي قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه هما لها ، فان نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضا ، (ثالثها) لو أن ذلك وقع لكان الواجب في التعبير عنه ان يقال : « ولقد هم بها وهمت به » لان الاول هو المقدم بالطبع والوضع وهو الهم الحقيقي ، والهم الثاني متوقف عليه لايتحقق بدونه (رابعها) أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ماطلبته طلبا جازما مصرة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضي له ، فاذن

لايصح ان يقال إنها همت به مطلقا حتى لو فرض جدلا انه كان قبولا لطلبه ومواتاة له ، اذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه ، وهو الذى يصح فيما حققناه من إرادة تأديبه بالضرب على أهون تقدير ، فهـذا هو المتبادر من نص اللغة ومن السياق وأقربه قوله عز وجل

٢٥ ﴿ واستبقا الباب ﴾ أي فر يوسف من أمامها هاربا الى باب الدار يريد الخروج منه للنجاة منها ترجيحاً للفرار على الدفاع الذي لايعرف مداه ، وتبعته تبغي إرجاعه حتي لايفلت من يدها وهي لاتدري أين يذهب اذا هو خرج ولامايقول وما يفعل ، وتكلف كل منهما ان يسبق الآخر ، فادركته ﴿ وقدت قميصه من دبر ﴾ إذ جذبته به من ورائه فانقد، قالوا إن القد خاص بقطع الشيء أو شقه طولا والقط قطعه عرضا ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ أي وجدا زوجها عند الباب، وكان النساء في مصر يلقبن الزوج بالسيد واستمر هذا الى زماننا ، ولم يقل سيدهما لان استرقاق يوسف غير شرعي وهذا كلام الله عز وجل لا كلام الرجل المسترق له ، ولعله كان قد تبناه بالفعل ، فلما دخل ورآهما في هذه الحالة المنكرة ﴿ قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أي شيئا يسوءك مهمايكن صغيراً أو كبيراً كما يدل عليه تنكير (سوءا) ﴿ إلا ان يسجن ﴾ أي الا سجن يعاقب به ﴿ أو عذاب أليم ﴾ موجع يؤدبه ويلزمه الطاعة . وكان هذا القول مكراً وخداعا لزوجها من وجوه

(أحدها) إيهام زوجها ان يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءه ويسوءها (ثانيها) انها لم تصرح بذنبه لئلا يشتد غضبه فيعاقبه بغير ما تريده كبيعه مثلا (ثالثها) تهديد يوسف وإنذاره مايعلم به أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها، فماذا قال يوسف في دفع التهمة الباطلة عنه وإسنادها اليها بالحق؟ ولولاه لاسبل عليها ذيل الستر؟

(٢٦) قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) وَإِن

كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٨) فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٩) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ

﴿ آيات تحقيق زوجها في القضية ﴾

هذه الآيات الاربع في تحقيق القضية وعلم زوجها به براءة يوسف وثبوت خطيئتها وبدىء ببيان جوابه الصريح المنتظر بعد اتهامها إياه بالتلميح وهو

٢٦ ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ فامتنعت وفررت كما ترى . فصارت النازلة أو القضية باختلاف قوليهما موضوع بحث وتحقيق وتشاور بين زوجها وأهلها لم يبين لنا التنزيل تفصيله لأن المقصود من القصة فيه بيان نزاهة يوسف وفضائله للعبرة بها وإنما علمنا أن هذا وقع بالفعل ، كما نعلم أنه كان متوقعا بحكم العادة والعقل ، من قوله تعالى ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ أي أخبر عن مشاهدة أو علم كالمشاهدة ، وقيل حكم مستدلا بما ذكر ، وقد اختلفوا في هذا الشاهد كعادتهم في المبهمات التي يكثر فيها التخيل والاختراع هل كان صغيرا أو كبيرا أوحكيما أو من خاصة الملك أوحيوانا حتي رووا عن مجاهد انه قال ليس بأنسي ولا جان هو خلق من خلق الله : مع قول الله إنه من أهلها ، ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والضحاك انه كان صبياً في المهد يؤيدها ما رواه احمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم » وابن جرير عن ابي هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهد » وهذا موقوف والمرفوع ضعيف وقد اختاره ابن جرير وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا رد ، وأما هذه الشهادة وفسرها بعضهم بالحكم فهي قوله

﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدام ﴿ فصدقت ﴾ في دعواها انه أراد بها سوءاً فانه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقد قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان ﴿ وهو من الكاذبين ﴾ في دعواه أنها راودته فامتنع وفر فتبعته وجذبته تريد ارجاعه ﴿ وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أي من خلف ﴿ فكذبت ﴾ في دعواها انه هجم عليها يريد ضربها ﴿ وهو من الصادقين ﴾ في قوله انه فر منها هاربا وهذه الشهادة ظاهرة على التفسير المختار الذى قررناه، ومشكلة على قول الجمهور كما صرح به بعض المدققين

٢٨ ﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن ﴾ أي ان هذا العمل ومحاولة التنصل منه بالاتهام من كيدكن المعهود منكن معشر النساء ، فهو لم يخص الكيد بزوجه فيقال إنه أمر شاذ منها يجب التروي في تحقيقه بأكثر مما شهد به أحد أهلها ، وهو لا يتهم في التحامل عليها وظلمها، بل هو سنة عامة فيهن في التفصي من خطيئاتهن، فقد أثبت خطيئتها مستدلا عليها بالسنة العامة لهن في أمثالها ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ لا قبل للرجال به ولا يفطنون لحيلكن في دقائقه

قال بعض المفسرين : ولربات القصور منهن القدح المعلى من ذلك لأنهن أكثر تفرغا له من غيرهن، مع كثرة اختلاف الكيادات اليهن . وههنا يذكرون قوله تعالى (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) يستدلون به على ان كيد النساء أعظم من كيد الشيطان ، ولا دلالة فيه وإن فرضنا ان حكاية قول هذا أقرار له، فالمقام مختلف وانما كيد النسوان بعض كيد الشيطان ، ثم التفت اليها والى يوسف قائلا

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ الكيد الذي جرى لك ولا تتحدث به ولا تخف من تهديدها لك ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ أيتها المرأة وتوبي إلى الله تعالى ﴿ انك كنت من الخاطئين ﴾ أي من جنس المجرمين مرتكبي الخطايا المتعمدين لها

ولهذا غلب فيه جمع المذكر فلم يقل من الخاطئات . وقد استدل الكرخي بقول هذا الوزير الكبير لزوجه على أنه كان قليل الغيرة وسيأتي مايؤيده، وزعم أبو حيان في البحر أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وانها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل فيها لا يبقى . وهذا كلام غير مبني على علم صحيح ، فاما سبب عدم نشوء الاسد في هذا القطر فهو خلوه من الغابات والادغال التي يعيش فيها ، وأما كونه اذا أدخل لا يبقى، فان صح بالتجربة في الماضي فسببه عدم وجود المأوى له، وها نحن أولاء نرى الاسود والفهود والنمور تعيش وتتناسل في حديقة الحيوان بالجيزة، وانما أشرنا الى هذا للرد على زاعميه والاطالة فيه ليست من موضوع التفسير

---

(٣٠) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٣١) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣٢) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ (٣٣) قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٣٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ

(حادثة مكر النسوة بامرأة العزيز ومراودة يوسف)

هذه الآيات الخمس في حادثة النسوة من كبار بيوتات مصر اللائي مكرن بامرأة العزيز لتجمعهن بهذا الشاب الذي فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكماله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ، ودعته إلى نفسها فردها وأباها ، خشية وطاعة لله ، وحفظا لأمانة السيد المحسن اليه ، أن يخونه في أعز شيء لديه ، لعله يصبو اليهن ، ويجذبه من جمالهن الطارىء المفاجيء له ، مالم يجذبه من جمالها الذي ألفه قبل أن يبلغ أشده ، وكان نظره اليها نظر الرقيق الى سيدته ، أو الولد إلى والدته ، وقد جاءت في السورة بأبدع صورة من الايجاز والبلاغة ، وأعلى تعبير من الادب والنزاهة ، وهو :

٣٠ ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ النسوة جمع قلة للمرأة من غير مادة لفظها ولم يبين لنا التنزيل عددهن ولا أسماءهن ولا صفاتهن لان الفائدة في العبرة محصورة في أن عملهن عمل جماعة قليلة يعهد في العرف ائتمارهن واتفاقهن على الاشتراك في مثل هذا المكر المنكر ، في مدينة كبيرة كعاصمة مصر ، التي بلغت منتهى فتن الحضارة ، وما تقتضيه من التمتع بالشهوات والزينة ، ولفظ النسوة مفرد مذكر فيجوز تذكير ضميره للفظه وتأنيثه لمعناه

ومن غريب فتنة الروايات الباطلة أن يدعي بعضهم أن اللواتي أجبن دعوتها الآتية منهن كن أربعين امرأة ، وهو مردود بالتعبير عن العاذلات كلهن بجمع القلة ، وكذا ماعلم بقرينة الحال والمقال من أنهن من بيوتات كبار الدولة ، فان نساء البيوت الدنيا وكذا الوسطى لايتسامين بعد الانكار على امرأة العزيز كبير وزراء الملك ، إلى الوصول اليها بالمكر والحيلة ، لمشاركتها في فتنتها بل نعمتها ، أو سلب عشيقها منها ؛ ويؤيد ذلك ما يأتي من عاقبة حادثتهن ، وكان من الطبيعي المعهود أن يعرفن نبأها معه ، ويكون حديثهن الشاغل لهن في مجالسهن الخاصة ، وكان خلاصته

الوجيزة المؤدية لمرادهن منه ما حكاه التنزيل عنهن وهو قولهن ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ هذا خبر يراد به لازمه وهو التعجب والانكار الصوري من النواحي أو الجهات الأربع (١) كون المتحدث عنها امرأة عزيز مصر وزير الملك الاكبر في علو مركزها (٢) كونها تهين نفسها وتحقر مركزها بأن تكون مراودة لرجل عن نفسه وشأن مثلها إن سخت بعفتها أن تكون مراودة عن نفسها لا مراودة لغيرها كما تقدم (٣) أن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها (٤) أنها بعد ان افتضح أمرها وعرف به سيدها وزوجها ، وعاملها بالحلم ، وأمرها باستغفار ربها ، لا تزال مصرة على ذنبها ، مستمرة على مراودتها ، وهو ما أفاده قولهن (تراود) وهو فعل المضارع الدال على الاستمرار ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أي قد اخترق حبه شغاف قلبها أي غلافه المحيط به ، وغاص في سويدائه ، فملك عليها أمرها ، حتى انها لا تبالي ما يكون من عاقبة تهتكها ، واللائق بمقامها الكتمان ، ومكابرة الوجدان ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي إنا لنراها بأعين بصائرنا وحكم رأينا غائصة في غمرة من الضلال البين الظاهر البعيد عن محجة الهدى والصواب . وهن ما قلن هذا إنكارا للمنكر وكرها للرذيلة ، ولا حبا في المعروف ونصرا للفضيلة ، وإنما قلنه مكرا وحيلة ، ليصل اليها فيحملها على دعوتهن ، وإرائتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عذلنها عليه ، فهو مكر لا رأي

٣١ ﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ وكان من المتوقع أن تسمعه لما اعتيد بين هذه البيوتات ، من التواصل بالزيارات ، واختلاف الخدم من كل منها الى الآخر ، وهن ما قلنه الا لتسمعه فان لم يصل اليها عفوا ، احتلن في إيصاله قصدا ، فكان ما أردنه ﴿ أرسلت اليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا ﴾

أي دعتهن الى الطعام في دارها ، ومكرت بهن كما مكرن بها ، بأن أعدت وهيأت لهن ما يتكئن عليه اذا جلسن من الكراسي والأرائك وهو المعتاد في دور الكبراء قال تعالى في صفة الجنة (متكئين فيها على الأرائك) وكان ذلك في حجرة مائدة الطعام ، وأعطت كل واحدة منهن سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم أو فاكهة ، وروي عن بعض مفسري السلف تفسير المتكأ بالطعام الذي يتكأ عليه أي يعتمد عليه لأجل قطعه كالجامد والشديد القوام ، دون الرخو كالموز الناضج من الفاكهة والحساء من الطعام ، والاتكاء على الشيء هو التمكن بالجلوس عليه أو الاعتماد عليه باليد أو اليدين ، قال في المصباح المنير : وتوكأ على عصاه اعتمد عليها واتكأ جلس متمكنا وفي التنزيل (وسررا عليها يتكئون) أي يجلسون وقال (وأعدت لهن متكأ) أي مجلسا يجلسن عليه . قال ابن الاثير : والعامة لا تعرف الاتكاء الا الميل في القعود معتمدا على أحد الشقين ، وهو يستعمل في المعنيين جميعا ، يقال اتكأ اذا أسند ظهره أو جنبه الى شيء معتمدا عليه ، وكل من اعتمد على شيء فقد اتكأ عليه وروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير تفسير المتكأ هنا بالاترج أو الاترنج (١) لانه لا يقطع الا بالاتكاء عليه ، وفي السنة أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يأكل وهو متكيء ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ أي أمرت يوسف بالخروج عليهن وكان في حجرة أو مخدع في داخل حجرة الطعام التي كن فيها محجوبا عنهن ، ولو كان في مكان خارج عنها لقالت ادخل عليهن ، فعلم من هذا أنها تعمدت أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه عالمة بما يكون لهذه الفجاءة من تأثير الدهشة ، وهو ما حكاه التنزيل عنهن من قوله تعالى

(١) الاترج بالجيم المشددة ويقال اترنج وترنج ثمر من جنس الليمون الحامض كبير مستطيل بشكل بطيخ الشمام يسميه العوام الكباد (بتشديد الباء) حامضه في جوفه قليل وسائره يؤكل بعد ازالة قشرة سطحه اللاصقة بجحمه الذي يؤكل اذا نضج

﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾ أي أعظمنه ودهشن لذلك الحسن الرائع ، والجمال البارع ، وغبن عن شعورهن ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ بدلا من تقطيع ما يأكلن ، ذهولا عما يعملن ، بأن استمرت حركة السكاكين الارادية بعد فقد الارادة على ما كانت عليه قبل فقدها ، ولكنها وقعت على أكف شمائلهن وقد سقط منها ما كان فيها من استرخائها بذهول تلك الدهشة فقطعتها أي جرحتها ، ولولا استرخاؤها لأبانتها ، والظاهر ان مضيفتهن تعمدت جعلها مشحوذة فوق المعهود في سكاكين الطعام مبالغة في مكرها بهن ، لتقوم لها الحجة عليهن بما لا يستطعن انكاره ، واختلف المفسرون في هذا القطع هل كان قطع إبانة انفصلت به الكف من المعصم أو الاصابع من الكف ؟ أم قطع جرح أطلق فيه لفظ بدء الشيء على غايته من باب المبالغة ، وهو ما يسميه علماء البيان بالمجاز المرسل ؟ الاكثرون على الثاني وهو مستعمل الى اليوم بالارث عن قدماء العرب فيمن يحاول قطع شيء فتصيب السكين يده فتجرحها يقول كنت أقطع اللحم أو الحبل (مثلا) فقطعت يدي ، كأنه يقول كاد ما اردته من قطع اللحم يكون بيدي مما أخطأت ، ولا يقال فيمن جرح عضوا منه أو من غيره كالطبيب قاصدا جرحه إنه قطعه إلا إذا بالغ فيه ، يقال أراد أن يجرح رجله ليخرج منها شظية نشبت فيها فقطعها ، يريد أنه بالغ فكاد يقطعها ، وقد أشار الزمخشري الى مثل هذا القيد في استعمال القطع بمعنى الجرح فقال : كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي » يريد فاخطأت فجرحتها حتى كدت أقطعها ﴿ وقلن حاش لله (١) ما هذا بشرا ﴾ اي قلن هذا تعجبا وتنزيها لله تعالى أن يكون خلق هذا الشخص العجيب في جماله وعفته من نوع البشر وهو مالم

---

١) كلمة حاش لله قرئت في السبع المتواترة بالالف (حاشا) و بدونها على ظاهر رسم المصحف الامام وهي حرف تفيد معنى التنزيه والبراءة في باب الاستثناء يقال أخطأ القوم حاشا زيد وزيدت فيه اللام للخطاب كما تقدم في : هيت لك

يعهد له في الناس مثل، إنه ليس بشرا مثلنا ﴿ إن هذا إلا ملك كريم ﴾ أي ماهذا إلا ملك من الملائكة الروحانيين تمثل في هذه الصورة البديعة التي تدهش الابصار وتخلب الالباب (كما كان يصورهم صناعهم الرسامون والنحاتون أرواح الملائكة والآلهة بالصور والتماثيل لتكريمها وعبادتها) وأحسن كلمة رويت في الآية عن مفسري السلف قول ابن زيد بن أسلم المدني: أعطتهن أترنجا وعسلا فكن يحززن الترنج بالسكين ويأكلنه بالعسل، فلما قيل له: اخرج عليهن خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الترنج ولا يعقلن ولا يحسبن الا أنهن يحززن الاترنج قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن (حاشا لله ماهذا بشرا) ماهكذا يكون البشر ماهذا إلا ملك كريم اهـ ففسر قطع الايدي بحزها والحز أقل ما يحدثه السكين كالفرض في الخشبة، وهنا يتساءل المتسائلون: ماذا قالت لهن، وقد غلب مكرها مكرهن؟ وصار حالها وحالهن كما قال الشاعر:

أبصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا ما لامك الناس في هواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه

٣٢ ﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ أي حينئذ قالت لهن ما يعلم شرحه من قرينة الحال، لما جاء في التنزيل من ايجاز واجمال: اذا كان الامر ما رأيتن بأعينكن، وما أكبرتن في أنفسكن، وما فعلتن بأيديكن، وما قلتن بألسنتكن، فذلكن هو الامر البعيد الغاية الذي لمتنني فيه، وأسرفتن في عذلي عليه، إذ قلتن من قبل ما قلتن، فالمشار اليه بكاف البعد هو أمر لومهن لها، أو يوسف البعيد في حقيقته البديع في صورته عما تصورونه به، فما هو عبراني أو كنعاني مملوك، وخادم صعلوك، قد شغف مولاته المالكة لرقه حبا وغراما، فهي تراوده عن نفسه ضلالا منها وهياما، بل هو أكبر من ذلك وأعظم، هو ملك روحاني، تجلى في شكل انسانى، أوتي

حسن روعة الجمال ماخلب ألبابكن في الوهلة الاولى من ظهوره لكن ، فما قولكن في أمري معه وافتتاني به ، وانما ترعرع في داري ، وبلغ أشده واستوى بين سمعي وبصري ، فأنا أشاهده في قعوده وقيامه ، ويقظته ومنامه ، وطعامه وشرابه ، وحركته وسكونه ، وأخلو به في ليلي ونهاري ، فأراه بشراً سويا ، إنسيا لاجنيا، وجسداً لاملكا روحانيا ، فأتراءى له في زينتي ، وأعرض على نظره ماظهر وما خفي من محاسني ، فيعرض عنها احتقاراً ، فأتصباه بكل ماأملك من كلام عذب يخلب اللب ، ولين قول وخشوع صوت يرقق القلب ، فلا يصبو إليّ ، وأمد عيني إلى محاسنه جامحة فيها كل ما يكنه قلبي من صبابة وشوق وخلاعة ، مع فتور جفن ، وانكسار طرف ، وطول ترنيق وتحديق ، فلا يرفع إلي طرفا ، ولا يميل نحوي عطفا ، بل تتجلى فيه الروح الملكية بأظهر مجاليها ، والعبادة الالهية بأكمل معانيها ، أمثل هذا الملك القاهر يسمى عبداً طائعا ، ومثل هذه المرأة المقهورة تسمى سيدة مالكة ، تأمر بل تشير فتطاع ، وينكر عليها ان تراود فترد ، ثم تريد إظهار سلطانها فتعجز ؟ لقد انكشف القناع ، فلا أمر لمن لا يطاع

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي استمسك بعروة عصمته التي ورثها عمن نشؤا عليها ، كأنه يطلب مزيد الكمال منها

ههنا أقول : والله ما عجبي من يوسف أن راودته مولاته فاستعصم وأن قالت له « هيت لك » فقال « أعوذ بالله » فكم قال هذا من ليس له مقامه في معرفته بالله ومراقبته لله ، وقد روي أن رجلا راود أعرابية في ليلة ليلاء ، وقال انه لايرانا غير كواكب هذه السماء ، فقالت وأين مكوكبها ؟

وإنما عجبي بل اعجابي بيوسف عليه السلام أن نظره إلى الله أو نظر الله اليه لم يدع في قلبه البشري مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حبا ، لتصبيها له قبل أن يخونها صبرها فتنفره بمصارحتها ، وان من أقوى غرائز البشر حب الانسان لمن يعتقد أنه يحبه ، وان كان مشغول القلب عنه بحب من لايحبه ، كما قيل

ونظرة المحبوب للمحب والله عن انسان عين القلب

وأما الخالي فلا يكاد يسلم من تأثير التحبب في استمالته كما قالت علية بنت المهدي العباسي * تحبب فان الحب داعية الحب * فالحب أقوى غرائز البشر، وأكبر مايفتن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وان من الحب لصادقا وكاذبا، وان من العشق لعذريا عفيفا، وشهويا فاسقا، وان مفاسده في الحضارة لكبيرة، وان فتنته لعظيمة، وسنعقد له فصلا في باب العبرة بالقصة في اجمال تفسير السورة ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ﴾ به، أقسم لكن آكد الايمان، ولتسمع ذلك منه الاذنان ﴿ ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ أي الأذلة المقهورين، تعني ان زوجها العزيز يعاقبه بما تريد من إلقائه في السجن وهو المدبر له المتولي لأمره، ومن جعله كغيره من العبيد بعد تكريم مثواه وجعله كولده، وهذا أشد مما أنذرته أولا إذ قالت لزوجها عند التقائهما به لدى الباب (ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) هنالك أنذرته أحد العقابين: سجن غير مؤكد، أوعذاب أليم نكرة غير معرف، قد يكون ذلك السجن المطلق بأخف صوره وأقلها، والعذاب المنكر بأهون أنواعه وألطفها فذاك بحبسه في حجرة من الدار، وهذا بلطمة يحتدم بها ما في خديه من الاحمرار وهنا أنذرته الجمع بينهما، وأكدت السجن بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وفسرت العذاب بالصغار الذي تأباه الانفس الكبيرة، واكتفت فيه بالنون الخفيفة(١) وهو أشق على مثل يوسف من العذاب الاليم بالاعمال الشاقة، لانها أهون على كرام الناس من الهوان والصغار باحتقار النفس، وفعله صغر كتعب، وأما صغر كضخم فهو خاص بصغر الجسم، ومن الاول قوله تعالى (٩: ٢٨ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)

وفي هذا التهديد من ثقة هذه المرأة بسلطانها على زوجها الوزير الكبير على علمه بأمرها، واستعظامه لكيدها، ماحقه أن يخيف يوسف من تنفيذ إرادتها، ويثبت عنده عدم غيرته عليها، كما هو شأن كثير من الوزراء المترفين، ولاسيما العاجزين عن

(١) وكتبت في المصحف الامام (وليكونا) بالالف (كنسفعا) على حكم الوقف لشبهها بالتنوين

إحصان أزواجهن، والمحرومين من نعمة الاولاد منهن، وماذا فعل يوسف وما قال وقد علم ان هذه المرأة الماكرة قد عيل صبرها، وهتكت سترها، وكاشفت نسوة كبار بلدها بما تسر وما تعلن من أمرها؟ ورأى أنهن تواطأن معها على كيدها، وراودنه عن نفسه كما راودته عن نفسها، وهو تواطؤ لا قبل لرجل به، إلا بمعونة ربه وحفظه

٣٣ ﴿قال رب السجن أحب الي مما يدعونني اليه﴾ أي قال: أي ربي، الغالب على أمري، العالم بسري وجهري، ان الحبس والاعتقال في السجن مع المجرمين حيث شظف العيش أحب الى نفسي وآثر عندي على ما يدعونني اليه هؤلاء النسوة من الاستمتاع بهن في ترف هذه القصور وزينتها، والاشتغال بحبهن عن حبك، وبقربهن عن قربك، وبمغازلتهن عن مناجاتك، وإنما يفسر ويشرح هذا بما يعلم من سياق القرآن، ومن طباع الرجال والنسوان، ومن التاريخ العام، والسنن الاجتماعية والاخلاق والعادات، وسيرة الصالحين والانبياء، دون حاجة الى ما لا سند له ولا دليل عليه من الروايات ودسائس الاسرائيليات، ومنه أنه ليس في السجن إلا الاعتبار بأحكام الملوك وأعوانهم من الوزراء والقضاة على من يسخطون عليهم بحق أو بغير حق، مما يزيدني إيمانا بقضائك، وصبراً على بلائك، وشكراً لنعمائك، وعلما بشئون خلقك، ويفتح لي باب الدعوة الى معرفتك وتوحيدك، والاستعداد لاقامة الحق، ونصب ميزان العدل، فيما عسى أن تخولني من الامر، اذا مكنت لي كما وعدتني في الارض

هذا ما يتبادر الى الفهم من توجيه التفضيل في الحب تدل عليه حالة يوسف وسابق قصته ولاحقها بغير تكلف ولا تحكم، كما هو دأبنا في كل ما نفسر به هذه القصة وغيرها، وهو يصدق في جعل اسم التفضيل هنا لا مفهوم له أو على غير بابه كما يقال، فليس المراد ان ما يدعونني اليه محبوب عندي والسجن أحب إلي منه، وانما معناه ان هذين الامرين اذا تعارضا وكان لا بد من أحدهما فالسجن آثر وأولى بالترجيح لان ما فيه من المشقة له فائدة عاجلة، وعاقبة صالحة، وأما مجاهدة هؤلاء النسوة مع المكث معهن، فهو أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة والعاقبة ما للسجن، فهو أي اسم التفضيل من قبيل قول المحدثين في بعض الاحاديث الضعيفة

هو أصح ما في هذا الباب ، يعنون أقوى ما فيه وإن كانت كلها غير صحيحة ، بل هو كقوله الآتي (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار)

وقيل يجوز أن يكون المراد من التفضيل ترجيح الاحب بمقتضى الايمان وحكم الشرع ، على المحبوب بمقتضى الغريزة وداعية الطبع ، فان الانبياء والصلحاء كسائر البشر يحبون النساء ويشتهون الاستمتاع بهن ، ولكنهم يكرهون أن يكون من غير الوجه المشروع ، وشره الاعتداء على نساء الناس ، ولما قال النبي ﷺ للفقراء « وفي بضع أحدكم صدقة » قالوا يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال « أرأيتم اذا وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ كذلك اذا وضعها في الحلال كان له أجر » رواه مسلم من حديث أبي ذر . وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله حيث لا ظل إلا ظله في موقف القيامة « ورجل دعته امرأة ذات جمال ومنصب الى نفسها فقال اني أخاف الله » وهو حديث متفق عليه . وذلك بأن للمرأة ذات المنصب سلطانا على قلب الرجل فوق سلطان الوضيعة في طبقتها وان كانت جميلة الصورة فيثقل على طبعه وتضعف ارادته أن يرد طلبها فكيف بها اذا جمعت بين سلطان الجمال وسلطان المنصب ثم ذلت له ودعته الى نفسها ؟

(فان قيل) إن المرأة إذا ابتذلت نفسها فبذلتها الرجل بذلا ، وتحوّل دلّها عليه مهانة وذلا ، فانه يحتقرها ، وتتحول رغبته فيها رغبة عنها (١) وكلما تمنعت عليه ازداد حبا لها وشوقا اليها ، كما قال الشاعر :

(١) قد جرى بحث علمي خلقي في هذه المسألة في محفل أدبي من اساتذي المدارس فقلت انني استغرب أن يهبط فساد الفطرة البشرية ببعض الفساق فيقودهن الى مواخير البغاء كيف لا يقرفون من رؤية من فيها وإن تصورحالهن أو رؤية تبذلهن لحقيق بأن ينفر الطبع السليم من جنس النساء ، فقال استاذ خبير بحال هذه الطبقات صار بعد ذلك من كبار رجال وزارة المعارف: إن افسد هؤلاء الفاسقين الأرذلين فطرة لا يكاد يغشى هذه المواخير الا وهو سكران ، لا يشعر بشيء يمتاز به الانسان على الحيوان ، وانما اذكر امثال هذه المسائل في تفسير القرآن الشريف لانه هداية وعبرة لجميع المكلفين فيجب أن يكون للدعاة الى هدايته علم بكل ما ابتلوا به من فساد في الجملة ، وهذه السورة من سوره هي المبينة للقدوة العليا في موضوع افتتان الرجال بالنساء والنساء بالرجال .

أحب شيء الى الانسان ما منعا منعت شيئا فأ كثرت الولوع به

(قلنا) نعم ان هذا مقتضى الطبع السليم كما ان ردذات الجمال والمنصب من ضعف الرجل أمام المرأة، ولكن المراودة قلما تبلغ من هؤلاء حد الوقاحة في الصراحة فتكون منفرة، وقد علمت انها احتيال ومراوغة لتحويل الارادة، وان لنساء الأكابر في الامصار التي أفسدتها الحضارة كيداً فيها وخداعا، وإن لأستاذهن الشيطان مسالك من إغوائهن والاغواء بهن يخر أقوى الرجال تجاهها صريعا، ولكن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وعناية ربهم بهم تغلب غوايته ومكر النسوان، وقد لجأ يوسف عليه السلام إلى هذه العناية، إذ عرض له كيد بضع نسوة من ذوات الجمال والمنصب لا بضاعة لهن إلا أبضاعهن، فقال ﴿وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ يعني إن لم تحول عني ما ينصبنه لي من شراك الكيد، ويمددنه من شباك الصيد، لم أسلم من الصبوة اليهن، وهي الميل إلى موافقتهن على أهوائهن، يقال صبا يصبو صبواً وصبوة إذا مال إلى اللهو وما يطيب للنفس من اتباع الهوى، ومنه ريح الصبا وهي التي تهب على بلاد العرب من مشرق الشمس لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها، حتى ان تغزل شعرائهم بها ليضاهيء تغزلهم بعشيقاتهم رقة وصبابة، ولاسيما اذا اقترنا وامتزجا كقول بعضهم:

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فانه اذا هب كان الوجد أيسر خطبه

﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيعملون السوء بجهالة وهي ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة، فان من يعيش بين أمثال هؤلاء النسوة الماكرات المترفات مثلي لا مفر له من الجهل الا بعصمتك وحفظك بما هو فوق الاسباب المعتادة، وهذا نص صريح منه (ع.م) بأنه ما صبا اليهن، ولا أحب أن يعيش معهن، وإنما بين مقتضى الاستهداف لكيد هؤلاء النساء، وسأل ربه أن يديم له ما عوده في قوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء)

٣٤ ﴿فاستجاب له ربه﴾ ما دعاه به وطلبه منه الذي دل عليه هذا الابتهال

والالتجاء اليه وطوى ذكره إيجازاً ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ فلم يصب اليهن ، فيحتاج إلى جهاد نفسه لكفها عن الاستمتاع بهن، وعصمه أن يكون من الجاهلين باتباع هواهن ﴿ إنه هو السميع ﴾ المجيب لمن أخلص له الدعاء ، جامعا بين مقامي الخوف والرجاء ﴿ العليم ﴾ بصدق ايمانهم ، وما يصلح من أحوالهم ، فعطف استجابة ربه له وصرف كيدهن عنه بالفاء الدالة على التعقيب وتعليلها بأنها مقتضى كمال صفتي السمع والعلم ، دليل على أن ربه عز وجل لم يتخل عن عنايته بتربيته اقصر زمن يهتم فيه بأمر نفسه ومجاهدته ، ومؤيد لقوله تعالى في أول سياق هذه الفتنة (والله غالب على أمره)

---

٣٥ ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ﴾ بدا هذه من البداء (بالفتح) لا من البدو المطلق، أي ثم ظهر لهم من الرأي مالم يكن ظاهرا من قبل، ومنه كلمة سيدنا علي البليغة [فما عدا مما بدا] أي فما عداك وصرفك عما كنت فيه مما بدا لك الآن وكان خفيا عنك قبله ، ولذلك عطفت الجملة بثم التي تفيد الانتقال مما كانوا فيه الى طور جديد بعد التشاور والتروي في الامر ، وضمير [لهم] يرجع الى أهل دار العزيز وامرأته ومن يعنيه أمرهما كالشاهد الذي شهد عليها من أهلها، والمراد بالآيات ماشهدوه واختبروه من الدلائل على أن يوسف إنسان غير الأناسي التي عرفوها في عقيدته وايمانه وأخلاقه من عفة ونزاهة واحتقار للشهوات والزينة والإتراف المتبع في قصور هذه الحضارة، ومن عناية ربه الواحد الأحد به كما يؤمن ويعتقد ، فمن هذه الآيات أن تفنن سيدته في مراودته لم يحدث أدنى تأثير في جذب خلسات نظره ولا في خفقات قلبه ، بل ظل معرضا عنها متجاهلا لها ، حتى اذا ماصارحته بكلمة [هيت لك] اقشعر جلده ، واستعاذ بربه، رب آبائه الذين يفتخر باتباع ملتهم ، وعيرها بالخيانة لزوجها (ومنها) انها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها وهي سيدته ، وما منعه من ذلك الا ما رأى من البرهان في دخيلة نفسه، مؤيدا لما يعتقده من صرف ربه السوء والفحشاء عنه (ومنها) انها لما اتهمته

بالتعدي عليها وأرادوا التحقيق في المسألة شهد شاهد من أهلها هو جدير بالدفاع عنها ، بما تضمن الحكم عليها بأنها كاذبة في اتهامها اياه بارادة السوء بها، وانه صادق فيما ادعاه من مراودتها اياه عن نفسه (ومنها) مسألة انتشار خبرها معه وخوض نساء المدينة في افتتانها به وإذلال نفسها ببذلها له مع إعراضه عنها (ومنها) مسألة أمكر هؤلاء النسوة وأعمقهن كيداً معه. إذ حاولن رؤيته وتواطأن عن مراودته، ودهشتهن مما شاهدن من جماله ،حتى قطعن أيديهن بدلا مما في أيديهن وهن لا يشعرن . فجميع هذه الآيات تثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها من هؤلاء النسوة مثار فتنة للنساء لا تدرك غايتها ،وان الحكمة والصواب في أمرها هو تنفيذ رأيها الاول في سجنه ـ وإن كانت سيئة النية ماكرة فيه ـ لإخفاء ذكره ،وكف ألسنة الناس عنها في

أمره ، فأقسموا ﴿ ليسجننه حتى حين ﴾ أي الى أجل غير معين حتى يكونوا مطلقي الحرية في طول مكثه وقصره وإخراجه، ويروا ما يكون من تأثير السجن فيه وحديث الناس عنه . وهذا القرار يدل على أن هذه المرأة كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير تقوده بقرنيه كيف شاء هواها ، وانه كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس عبيد الشهوات . وقد أعجبني فيه قول الزمخشري على قلة ما أعجبني من أقوال المفسرين في هذه القصة التي شوهتها عليهم الروايات الاسرائيلية المخترعة والعناية باعرابها . قال في تفسير ما رأوا من الآيات: وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه في الذروة والغارب [1] وكان مطواعة لها ، وجملا ذلولا زمامه في يدها ،حتى أنساه

---

١) مثل يضرب لمن يتلطف في خداع غيره حتى يتمكن من تذليله وقياده، والذروة بالكسر والضم أعلى الشيء والمراد هنا أعلى سنام البعير، والغارب ما بين العنق والسنام منه وهو الذي يلقى عليه الخطام وهو بالكسر حبل يوضع في عنقه ويثنى في خطمه أي أنفه ليقاد به بسهولة . وأصل هذا الفتل فيهما ان يجيء الرجل بالخطام فيخفيه عن البعير لئلا يمتنع من وضعه ويأخذ بفتل ذروته وغاربه فيلذ له ذلك حتى يأنس به فاذا تمكن منه وضع له الخطام وقاده به فانقاد

ذلك ما عاين من الآيات، وعمل برأيها في سجنه لالحاق الصغار به كما أوعدته، وذلك لما أيست من طاعته، وطمعت في أن يذلله السجن ويسخره لها اه

وجملة القول في هذه الحادثة ان يوسف (ع.م) كان أكمل مثل للعفة والصيانة والامانة من أولها الى آخرها، وهي في سفر التكوين ناقصة ومخالفة لما هنا في دعوى المرأة، والله اعلم من مؤلف سفر التكوين المجهول بما كان وبما ينفع الناس*

﴿ عبارة سفر التكوين في الحادثة من الاصحاح ٣٩ ﴾

*) وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي ٨ فأبى وقال لامرأة سيده هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه الى يدي ٩ ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك عني شيئا غيرك لانك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطيء الى الله ١٠ وكان اذ كلمت يوسف يوما فيوما انه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها

١١ ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت ١٢ فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج الى خارج ١٣ وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب الى خارج ١٤ انها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا دخل الي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ١٥ وكان لما سمع اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج الى خارج

١٦ فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده الى بيته ١٧ فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل الي العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني ١٨ وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب الى خارج

١٩ فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمي ٢٠ فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن

٢١ ولكن الرب كان مع يوسف و بسط اليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ٢٢ فدفع رئيس بيت السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل ٢٣ ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده لان الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه اه

(٣٦) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٣٨) وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

(سيرة يوسف عليه السلام فى السجن)

هذه الآيات الثلاث في إظهار معجزة النبوة ، والتمهيد لدعوة الرسالة

٣٦ ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ هذا عطف على مفهوم ما قبله أي فسجنوه ودخل معه السجن بتقدير الله الخفي الذي يعبر عنه جاهلوه بالمصادفة والاتفاق : فتيان مملوكان تبين فيما بعد انهما من فتيان ملك مصر . روي عن ابن عباس ان أحدهما خازن طعامه والآخر ساقيه ، فماذا كان من شأنه معهما ؟ ﴿ قال أحدهما إني أراني أعصر خمرا ﴾ أي رأيت في المنام رؤيا واضحة جلية كأني أراها في اليقظة الآن وهي انني أعصر خمرا ، أي عنبا ليكون خمرا لا ليشرب الآن ، وقراءة ابن مسعود وأبي في الشواذ « أعصر عنبا » تفسير لا قرآن ، وما كل العنب يعصر لأجل التخمير فما نقل من أن عرب غسان وعمان يسمون العنب خمرا فمحمول على هذا النوع المخصوص منه لكثرة مائه وسرعة اختماره ، دون ما يؤكل في الغالب تفكها لكبر

حجمه واكتناز شحمه وقلة مائه، ولكل منهما أصناف ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه﴾ الطير جمع واحده طائر، وتأنيثه أكثر من تذكيره، وجمع الجمع طيور وأطيار ﴿نبئنا بتأويله﴾ أي قال له كل واحد منهما نبئني بتأويل ما رأيت، أي بتفسيره الذي يؤول اليه في الخارج إذا كان حقا لا من أضغاث الاحلام، ويصح إعادة الضمير المفرد على الكثير كاسم الاشارة بمعنى المذكور أو ماذكر، ومنه قول الراجز: فيها خطوط من سواد وبلق كأنه في الجسم توليع البهق ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ عللوا سؤالهم إياه عن أمر يهمهم ويعنيهم دونه برؤيتهم إياه من المحسنين بمقتضى غريزتهم الذين يريدون الخير والنفع للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة ولا هوى، وقيل من المحسنين لتأويل الرؤى، وما قالا هذا القول إلا بعد أن رأوا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ماوجّه اليه وجوههما، وعلق به أملهما. وهذا من إيجاز القرآن الخاص به

افترص يوسف (ع. م) ثقة هذين السائلين بعلمه وفضله وإصغاءهما لقوله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤاهما فبدأ حديثه بما هو أهم عنده وهو دعوتهما وسائر من في السجن إلى توحيد الله عز وجل، فعلم من هذا أن وحي الرسالة جاءه بعد دخول السجن فحقق قوله (رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه) كما ان وحي الالهام جاءه عند إلقائه في غيابة الجب على ما سبق، وحكمة هذا من ناحيته عليه السلام ظاهرة بما بيناه من أن الله تعالى جعل له في كل محنة ظاهرة، منحة باطنة، وفي كل بداية محرقة، نهاية مشرقة، تحقيقا لما فهمه أبوه من اجتباء ربه له الخ. وحكمته من ناحية دعوة الدين ان أقوى الناس وأقربهم استعدادا لفهمها والاهتداء بها: هم الضعفاء والمظلومون والفقراء، وأعتاهم وأبعدهم عن قبولها هم المترفون والمتكبرون، بدأ يوسف بالدعوة بعد مقدمة في بيان الآية الدالة على صدقه والثقة بقوله وهي إظهار مامن الله به عليه من تعليمه ماشاء من أمور الغيب وأقربها الى اقتناعهم مايختص بمعيشتهم، فكان هذا مايقتضيه المقام وتوجيه الرسالة من جوابهم، وهو:

٣٧ ﴿قال لا يأتيكما طعام ترزقانه﴾ وهو ما لا تدرون من حيث لا تدرون،

وإني وإياكم في هذا السجن لمحجوبون ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ أي أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهي اليه بعد وصوله اليكما: أنبئكما بكل هذا من شأن هذا الطعام قبل أن يأتيكما ، روي أن رجال الدولة كانوا يرسلون الى المجرمين أو المتهمين طعاما مسموما يقتلونهم به وأن يوسف أراد هذا، وما قلته يشمل هذا إذا صح ،وهو ما يفهم من تسمية إنبائهما به تأويلا ، فان التأويل الاخبار بما يؤل اليه الشيء وهو فرع معرفته ، ولذلك قال بعضهم إنه سماه تأويلا من باب المشاكلة لما سألاه عنه من تأويل رؤاهما ، وقال بعضهم أن المراد لاتريان في النوم طعاما يأتيكما إلا نبأتكما بتأويله ،وهو بعيد . وفسر الزمخشري ومن قلده تأويله [ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل والاعراب عن معناه] اه وهو تكلف سرى اليه من مفهوم التأويل في اصطلاح علماء الكلام وأصول الفقه لا من صميم اللغة ﴿ ذلكما مما علمني ربي ﴾ أي ذلك الذي أنبئكما به بعض ما علمني ربي بوحي منه إلي، لا بكهانة ولا عرافة ولا تنجيم ،ولا ما يشبههما من طرق صناعية أو تعليم بشري يلتبس به الحق بالباطل ، ويشتبه الصواب بالخطأ ، فهو آية له كقول عيسى لبني إسرائيل من بعده (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ﴾ خالق السموات والارض وما بينهما كما يجب له من التوحيد والتنزيه ، أي تركت دخولها واتباع أهلها من عابدي الأوثان المنتحلة على كثرة أهلها ودعوتهم اليها ، وليس المعنى أنه كان متبعا لها ثم تركها ؛ فقوله تعالى (أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟) أي بعد موته فلا يبعث ، ليس معناه أنه كان سدى قبله ، فترك الشيء يصدق بعدم ملابسته مطلقا ، وبالتحول عنه بعد التلبس به ، ويفرق بينهما بقرينة الحال أو المقال أو كليهما كما هنا . والمتبادر أنه أراد بهؤلاء القوم الكنعانيين وغيرهم من سكان أرض الميعاد التي نشأ فيها ، والمصريين الذين هو فيهم وبينهم ، فانهم اتخذوا من دون الله آلهة معروفة في التاريخ أعظمها الشمس واسمها عندهم (رع) ومنها

فراعنتهم والنبل وعجلهم (أبيس) وإنما كان التوحيد خاصا بحكمائهم وعلمائهم ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي وهم الآن يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة فان المصريين وان كانوا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء الذي دعا اليه الانبياء إلا أنه فشا فيهم تصوير هذا الايمان بصور مبتدعة ومنها ان فراعنتهم يعودون الى الحياة الاخرى بأجسادهم المحنطة ويعود لهم السلطان والحكم ولهذا كانوا يدفنون أو يضعون معهم جواهرهم وغيرها، ويبنون الاهرام لحفظ جثثهم وما معها ، ولعله لهذا أكد الحكم بالكفر بها باعادة الضمير « هم » ليبين ان ايمانهم بالآخرة على غير الوجه الذي جاءت به الرسل فهو غير صحيح

٣٨ ﴿ واتبعت ملة آبائي ﴾ أنبياء الله الذين دعوا الى توحيده الخالص « وبين أسماءهم من الأب الأعلى الى الادنى بقوله ﴿ ابراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ فلفظ الآباء يشمل الجدود وإن علوا ، وبين أساس ملتهم التي اتبعها وراثة وتلقينا فكانت يقيناله ولهم ووجدانا ، بقوله ﴿ ما كان لنا ﴾ أي ما كان من شأننا معشر الانبياء (١) ولا مما يقع منا ﴿ أن نشرك بالله من شيء ﴾ نتخذه ربا مدبراً أو إلهاً معبوداً معه لا من الملائكة ولا من البشر (كالفراعنة) فضلا عما دونهما من البقر (كالعجل أبيس) أو من الشمس والقمر ، أو ما يتخذ هذه الآلهة من التماثيل والصور ﴿ ذلك من فضل الله علينا ﴾ بهدايتنا إلى معرفته وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بوحيه وآياته في خلقه ﴿ وعلى الناس ﴾ بارسالنا اليهم ننشر فيهم دعوته ، ونقيم عليهم حجته ونبين لهم هدايته ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ نعم الله عليهم ، فهم يشركون

(١) في سفر التكوين الذين يعدونه من التوراة أن عيسو بن اسحق البكر كان يعبد الاصنام وان اباه كان يفضله في الحب على أخيه وتوأمه يعقوب الموحد لله ، وان يعقوب احتال على ابيهما اسحق حتى اعطاه بركة البكورية التي هي حق عيسو لأنه خرج من بطن أمه قبله ، فتأمل الفرق بين هداية القرآن وهدايته !!!

به أربابا وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم ، ثم صرح لهما ببطلان ماهما عليه من الشرك ونبههم إلى برهان التوحيد فقال

(٣٩) يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤٠) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿ الدعوة الى التوحيد الخالص ببرهانه ﴾

٣٩ ﴿ياصاحبي السجن﴾ أضافهما إلى السجن بمعنى ياساكني السجن أو بمعنى ياصاحبي في السجن كما قيل * ياسارق الليلة أهل الدار * أي سارقهم فيها ﴿أأرباب متفرقون﴾ هذا استفهام تقرير بعد تحيير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد، وكان المصريون المخاطبون به يعبدون كغيرهم من الامم أربابا متفرقين في ذواتهم ، وفي صفاتهم المعنوية التي ينعتونهم بها ، وفي صفاتهم الحسية التي يصورها لهم الكهنة والرؤساء بالرسوم المنقوشة والتماثيل المنصوبة في المعابد والهياكل ، وفي الاعمال التي يسندونها اليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه «أأرباب متفرقون» أي عديدون هذا شأنهم في التفرق والانقسام ، وما يقتضيه بطبعه من التنازع والاختلاف في الاعمال، والتدبير المفسد للنظام ، هو ﴿خير﴾ لكما ولغيركما من الافراد والاقوام ، فيما تطلبون ويطلبون من كشف الضر وجلب النفع ، وكل ماتحتاجون فيه إلى المعونة والتوفيق من عالم الغيب ﴿أم الله﴾ الواجب الوجود ، الخالق

لكل موجود ﴿الواحد﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله، المنفرد بالخلق والتقدير والتسخير، الذي لا ينازع ولا يعارض في التصرف والتدبير ﴿القهار﴾ بقدرته التامة وإرادته العامة، وعزته الغالبة، لجميع القوى والسنن والنواميس التي يقوم بها نظام العوالم السماوية والارضية، كالنور والهواء والماء الظاهرة، والملائكة والشياطين الباطنة، التي كان الجهل بحقيقتها، وسبب اختلاف مظاهرها، هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها؟ الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان أدركا السؤال: بل هو الله الواحد القهار، لارب غيره ولا إله سواه، ولذلك رتب عليه قوله

٤٠ ﴿ما تعبدون من دونه﴾ أي غير هذا الواحد القهار ﴿إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ من قبلكم أي وضعتموها لمسميات نحلتموها صفات الربوبيـة وأعمال الرب الواحد، فاتخذتموها أربابا وما هي بأرباب تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع، ولا تدبر ولا تشفع، فهي في الحقيقة لا مسميات لها بالمعنى المراد من لفظ الرب الاله المستحق للعبادة، حتى يقال إنها خير أم هو خير ﴿ما أنزل الله بها﴾ أي بتسميتها أربابا على أحد من رسله ﴿من سلطان﴾ أي أيّ نوع من أنواع البرهان والحجة فيقال إنكم تتبعونه بالمعنى الذي أراده تعالى منه، تعبداً له وحده وطاعة لرسله، فيكون اتباعها أو تعظيمها غير مناف لتوحيده، كاستلام الحجر الاسود عند الطواف بالكعبة المعظمة مع الاعتقاد بأنه حجر لا ينفع ولا يضر كما ثبت في الحديث — فهي تسمية لا دليل عليها من النقل السماوي فتكون من أصول الايمان، ولا دليل عليها من العقل فتكون من نتائج البرهان

وأقول إنه لما قامت هذه الحجة على النصارى ببطلان ثالوثهم الذي اتبعوا فيه ثالوث قدماء المصريين والهنود ادعوا أن له أصلا من الوحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم أو تلاميذه، وأنه بهذا لا ينافي التوحيد فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة، والذي حققه علماء الافرنج المؤرخون تبعاً للمسلمين أنه لا أصل له

من الوحي ، وان كلمات الآب والابن وروح القدس لها معان عند الذين آمنوا بالمسيح في حياته هي غير المعاني الاصطلاحية عند كنائس الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت الجامعة لاكثر النصارى ، والاحرار العقليون من نصارى الافرنج يرفضونها كلهم وهم ملايين ولكن ليس لهم كنيسة جامعة ، وإنما يقولون في المسيح ماقرره الاسلام فيه وأكثرهم لايعلمون ذلك ، ولو عرفوا حقيقة الاسلام لكانوا كلهم مسلمين ، ولكنهم سيعلمون ويسلمون اتباعا ، كما أسلموا فطرة وعقلا

﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم الحق في الربوبية ، والعقائد والعبادات الدينية ، إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لايمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ،فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الازمنة والامكنة

ثم بين أول أصل بنى عليها لانه أول مايجب أن يسأل عنه من عرفها فقال

﴿ أمر أن لاتعبدوا إلا إياه ﴾ بل إياه وحده فادعوا واعبدوا ، وله وحده فاركعوا واسجدوا ، واليه وحده فتوجهوا ، حنفاء لله غير مشركين به ملكا من الملائكة الروحانيين ، ولا ملكا من الملوك الحاكمين ، ولا كاهنا من المتعبدين ، ولا شمسا ولا قمرا ، ولا نجما ولا شجرا ، ولا نهراً مقدسا كالكنج والنيل ، ولا حيوانا كالعجل أبيس ، فالمؤمن الموحد لله لايذل نفسه بالتعبد لغير الله من خلقه بدعاء ولا غيره ، لايمانه بأنه هو الرب المدبر المسخر لكل شيء ، وأن كل ماعداه خاضع لارادته وسننه في أسباب المنافع والمضار ، لا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى التي هي قوام جنسه ومادة حياة شخصه (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فاليه وحده الملجأ في كل مايعجز عنه الانسان أو يجهله من الاسباب ، واليه المصير للجزاء على الاعمال يوم الحساب

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي الحق المستقيم الذي لاعوج فيه من جهالة الوثنيين ، الذي دعا اليه جميع رسل الله أقوامهم ومنهم آبائي : ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب

﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ ذلك حق العلم لاتباعهم أهواء آبائهم الوثنيين ،

الذين اتخذوا لأنفسهم أربابا متفرقة ليس لها من الربوبية أدنى نصيب

ومن العجيب أن هذه الحقيقة التي بينها القرآن في مئات من الآيات البينات تتلى في السور الكثيرة بالاساليب البليغة ، صار يجهلها كثير من الذين يدعون اتباع القرآن ، فمنهم من يجهل حقيقة التوحيد نفسه فيتوجهون إلى غير الله إذا مسهم الضر أو عجزوا عن بعض ما يحبون من النفع فيدعونهم خاشعين راغبين من دون الله ، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله ، كما كان يفعل من كان قبلهم من المشركين ، ومنهم من يعرف معنى التوحيد ولكنهم يجهلون أن جميع رسل الله دعوا اليه جميع الامم ، زاعمين ان هذه الدعوة انفرد بها ابراهيم والرسل من ذريته فقط كما يفهمون من كتب أهل الكتاب والافرنج ، فهم يكتبون هذا في الصحف وفي أسفار التاريخ وفيما يسمونه فلسفة الدين أو فلسفة التفكير ، فهم يزعمون ان البشر نشئوا على الاديان الوثنية حتى كان اول من دعاهم الى التوحيد ابراهيم ﷺ من زهاء أربعة آلاف سنة ، والقرآن حجة عليهم بتصريحه ان الله تعالى أرسل في جميع الامم رسلا دعوهم إلى التوحيد أولهم نوح عليه السلام ، فان قومه كانوا أول من عبد الصالحين الميتين واتخذوا لهم الصور والاصنام ، وكان البشر قبلهم على الفطرة وتوحيد آدم عليه السلام (١)

(فان قيل) ان يوسف عليه السلام لم يدع صاحبيه في السجن وسائر من كان معهما فيه إلى غير التوحيد من شرع آبائه فما سبب ذلك ؟ (قلت) ان أهل مصر كانوا أصحاب شريعة تامة لم يبعث لنسخها ولا لتغييرها ، وهي في الاصل سماوية وإنما طرأت الوثنية على توحيدهم لله تعالى وأحدثوا تقاليد خيالية في البعث ، فهو قد دعاهم الى أصل الدين الذي كان عليه جميع رسل الله وهو التوحيد والآخرة وما فيها من الحساب والجزاء ، وقد طرأ عليها عندهم ما أشرنا اليه آنفا في تفسير قوله

---

(١) عند كتابة هذا جاءنا الجزء ٨ : ٦ من مجلة الشبان المسلمين التي صدرت في شهر المحرم سنة ١٣٣٤ فاذا فيه مقالة عنوانها (الاسلام منذ ٨٠٠٠ سنة في وادي النيل) ذكر فيها كاتبها ان سكان مصر الاولين كانوا قبائل همجية على الفطرة وان الوافدين اليها من غرب آسية (اي بلاد العرب) كانوا على شيء من المعارف الدينية وغيرها وهم الذين ادخلوها الى هذه البلاد واهمها التوحيد والبعث

(وهم بالآخرة هم كافرون) يعني كفرهم بأن الجزاء يكون في عالم آخر بعد فناء هذه الاجساد وبعثهم في نشأة أخرى لا في هذه الدنيا كما يزعمون ، وعقائدهم في هذه المسألة مدونة في التاريخ المأخوذ من آثار الفراعنة وأشهرها انهم كانوا يحنطون أجسادهم لاجل أن تعود اليها الحياة التي فارقتها ، وكان ملوكهم يحفظون في أهرامهم وغيرها من قبورهم حليهم وحللهم ومتاعهم لاجل أن يتمتعوا بها في النشأة الاخرى حيث يعودون ملوكا كما كانوا ، فهذه أباطيل طرأت على العقائد الاصلية المنزلة، وتقاليدهم هذه منقوشة من مواضع من الاهرام وتوابيت الموتى وصفائح القبور ، ومنها ما هو خاص بنعيم العوام ومنه أنهم يتشكلون بالصور التي يحبونها. وتشكل الارواح في الصور هو الاصل العلمي المعقول لعقيدة البعث في هيكل أثيري يلبس جسدا كثيفاً كالجسد الدنيوي كما روي عن الامام مالك رحمه الله ، ومنه ما صح في الحديث من تشكل أرواح الشهداء في صور طير خضر تسرح في الجنة . وانما يكون التشكل على أكمله في الجنة جعلنا الله من خير أهلها

وأما الركن الثالث من دين الرسل وهو العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات فكان يوسف عليه السلام يكتفي منه بما كان خير قدوة فيه كما علم من قصته في بيت وزير البلاد وفي السجن ثم في ادارته لأمور الملك ، وكان يقرهم على سائر شريعتهم كما سيأتي في احتياله على أخذ أخيه الشقيق بمقتضى شريعتهم الاسرائيلية بقول الله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) الخ وبعد أن أدى يوسف رسالة ربه عبر لصاحبيه رؤياهما بقوله

(٤١) يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ (٤٢) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ

﴿ تاويله لمنامي صاحبي السجن ووصيته للناجي منهما ﴾

٤١ ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ﴿فيسقي ربه خمراً ﴾ يعني ربه مالك رقبته وهو الملك لا ربوبية العبودية فملك مصر في عهد يوسف لم يدع الربوبية والالوهية كفرعون موسى وغيره ، بل كان من ملوك العرب الرعاة الذين ملكوا البلاد عدة قرون ﴿ وأما الآخر ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه ﴿فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ اي الطير التي تأكل اللحوم كالحدأة ، وهذا التأويل قريب من أصل رؤيا كل منهما وقد يكون من خواطرهما النومية وتأويلهما على كل حال من مكاشفات يوسف ويؤكدها قوله ﴿ قضي الامر الذي فيه تستفتيان ﴾ فهذا نبأ زائد على تعبير رؤياهما ورد مورد الجواب عن سؤال كان يخطر ببالهما أو أسئلة في صفة ذلك التعبير وهل هو قطعي أم ظني يجوز غيره ومتى يكون؟ فهو يقول لهما ان الامر الذي يهمكما أو يشكل عليكما وتستفتياني فيه قد قضي وبت فيه وانتهى حكمه . والاستفتاء في اللغة السؤال عن المشكل المجهول ، والفتوى جوابه سواء أكان نبأ أم حكما ، وقد غلب في الاستعمال الشرعي في السؤال عن الاحكام الشرعية ، ومن الشواهد على عمومه (افتوني في رؤياي) وهي مشتقة من الفتوة الدالة على معنى القوة والمضاء والثقة

قلت ان هذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على ما عبر به رؤياهما داخلة في قسم المكاشفة ونبأ الغيب مما علمه الله تعالى وجعله آية له ليثقوا بقوله وهم أولو علم وفن وسحر ، ومعناها انه علم بوحي ربه أن الملك قد حكم في امرهما بما قاله لا من باب تأويل الرؤيا على تقدير كون ما رأيا من النوع الصادق منها لا من أضغاث الاحلام [وسنبين الفرق بينهما في التفسير الاجمالي لكليات السورة ان شاء الله تعالى]

٤٢ ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ وهو الذي اول له رؤياه بأنه يسقي ربه خمرا ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، فان كانت فتواه بعده عن وحي نبوي كما رجحنا لا تتمة لتأويلها فيجوز أن يكون التعبير عن نجاته

بالظن لان ما علم من قضاء الملك بذلك يحتمل ان يعرض ما يحول دون تنفيذه ، وقد بينا في الكلام على رؤيا يوسف وما فهمه أبوه منها من أمر مستقبله ان علم الانبياء ببعض الامور المستقبلة إجمالي الخ وقال جمهور المفسرين ان الظن هنا بمعنى العلم وفي هذه الدعوى نظر وقد بينا تحقيق الحق في الفرق بين الظن والعلم لغة واصطلاحا في موضع آخر فلا محل لاعادته هنا ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي عند سيدك الملك بما رأيت وسمعت وعلمت من أمري عسى أن ينصفني ممن ظلموني ويخرجني من السجن ، وهذا الذكر يشمل دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا وإنباءهم بكل ما يأتيهم من طعام وغيره قبل إتيانه، وآخره فتواه الصريحة فهي جديرة بأن تذكره به كلما قدم للملك شرابه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي أنسى الساقي تذكر ربه وهو أن يذكر يوسف عنده على حد (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ منسيا مظلوما ، والفاء على هذا للسببية وهو المتبادر من السياق ، والجاري على نظام الاسباب ، ويؤيده قوله تعالى الآتي قريبا (وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة) أي تذكر ، إلا أن هذا الاستعمال يحتاج الى حذف وتقدير . ووجهوه بأنه أضاف المصدر اليه لملابسته له أو انه على تقدير : ذكر إخبار ربه ، فحذف المضاف وهو كثير كما ان الاضافة لأدنى ملابسة كثير في كلامهم

وقيل ان المعنى ان الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه وهو الله عز وجل فعاقبه الله تعالى بابقائه في السجن بضع سنين(١) وقالوا إن ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب انه توسل الى الملك لاخراجه ولم يتوكل على الله عز وجل ، وجاؤا عليه بروايات لا يقبل في مثلها إلا الصحيح المرفوع أو المتواتر منه، لانها تتضمن الطعن في نبي مرسل ، ولكن قبلها على علاتها الجمهور كعادتهم وهو خلاف الظاهر من وجوه:

(الاول) عطف الانساء على ما قاله للساقي بالفاء يدل على وقوعه عقبه ، ومفهومه أنه كان ذاكرا لله تعالى قبله الى أن قاله فلو كان قوله ذنبا عوقب عليه لوجب

(١) استشهدت بهذا القول المشهور في تفسير (إنه ربي أحسن مثواي) وهو خطأ

أن يعطف عليه بجملة حالية بأن يقال : وقد أنساه الشيطان ذكر ربه — أي في تلك الحال — فلم يذكره بقلبه ولا بلسانه ، فاستحق عقابه تعالى باطالة مكثه على خلاف ما أراده من ملك مصر وحده

(الثاني) أن اللائق بمقامه أن لا يقول ذلك القول إلا من باب مراعاة سنة الله تعالى في الاسباب والمسببات كما وقع بالفعل فانه ماخرج من السجن إلا بأمر الملك ، وما أمر الملك باخراجه إلا بعد أن أخبره الساقي خبره ،وما آتاه ربه من العلم بتأويل الرؤى وبغير ذلك مما وصاه به يوسف ، فاذا كان قد وصاه بذلك ملاحظا انه من سنن الله في عباده متذكراً ذلك وهو اللائق به، فلا يعقل أن يعاقبه ربه تعالى عليه، وعطف الانساء بالفاء يدل على وقوعه بعد تلك الوصية فلا تكون هي ذنبا ولا مقترنة بذنب فيستحق عليها العقاب

(الثالث) إذا قيل سلمنا انه كان ذاكراً لربه عند ما أوصى الساقي ما أوصاه به ولكنه نسيه عقب الوصية واتكل عليها وحدها (قلنا) إن زعمتم انه نسي ذلك في الحال واستمر ذلك النسيان مدة ذلك العقاب وهو بضع سنين أو تتمتها كنتم قد اتهمتم هذا النبي الكريم تهمة فظيعة لاتليق بأضعف المؤمنين ايمانا ، ولا يدل عليها دليل ، بل يبطلهـا وصف الله له بأنه من المحسنين ومن عباده المخلصين المصطفين ، وبأنه غالب على أمره،وانه صرف عنه السوء والفحشاء ، وكيد النساء

وإن زعمتم أن الشيطان أنساه ذكر ربه برهة قليلة عقب تلك الوصية ثم عاد إلى ما كان عليه من مراقبته له عز وجل وذكره فهذا النسيان القليل،لا يستحق هذا العقاب الطويل ، ولم يعصم من مثله نبي من الانبياء كما يعلم من الوجهين الرابع والخامس

(الرابع) جاء في نصوص التنزيل في خطاب الشيطان (١٥: ٤٢ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) وقال تعالى (٧: ٢٠١ أن الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون) فالتذكر بعـد النسيان القليل من شأن أهل التقوى

(الخامس) ان النسيان ليس ذنبا يعاقب الله تعالى عليه ، وقد قال تعالى لخاتم

النبيين (٦:٦٨ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) يعني الذين أمره بالاعراض عنهم إذا رآهم يخوضون في آيات الله

(السادس) إنهم ماقالوا هذا إلا لأنهم رووا فيها حديثا مرفوعا على قلة جرأة الرواة على الاحاديث المرفوعة المسندة في التفسير وهو ما أخرجه ابن جرير الطبري في تفسير الآية عن سفيان بن وكيع عن عمرو بن محمد عن ابراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال قال النبي ﷺ « لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول مالبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله » ونقول ان هذا الحديث باطل ، قال الحافظ ابن كثير وهذا الحديث ضعيف جداً : سفيان بن وكيع ضعيف وابراهيم بن يزيد هو الجوزي أضعف منه أيضا . وقد روي عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما . وهذه المرسلات ههنا لاتقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن والله أعلم اه

وأقول أولا إن ما قاله في هذين الراويين للحديث هو أهون ما قيل فيهما ومنه أنهما كانا يكذبان، وثانيا إنه يعني بقوله [ههنا] الطعن في نبي مرسل بأنه كان يبتغي الفرج من عند غير الله وهو الجدير بأن لاتحجبه الاسباب الظاهرة عن واضعها ومسخرها وخالقها عز وجل . ويعني بقوله [لو قبل المرسل من حيث هو] ما هو الصحيح عند علماء الاصول وهو عدم الاحتجاج بالمراسيل . وسنتكلم على المراسيل في التفسير في الكلام الاجمالي عن روايات هذه السورة وأمثالها في الخلاصة الاجمالية لتفسيرها ان شاء الله تعالى ، وما رواه الكلبي وغيره عن وهب ابن منبه وكعب الاحبار من خطاب الله تعالى وخطاب جبريل ليوسف وتوبيخه على الاستشفاع بآدمي مثله فهي من موضوعات الراوي والمروي عنهما جزاهم الله ما يستحقون فتبين بهذا أن التفسير المأثور في الآية باطل رواية ودراية وعقيدة ولغة وأدبا

وقد اختلف المفسرون في مدة لبث يوسف في السجن بناء على الاختلاف في تفسير البضع واختلاف الرواة . فالتحقيق ان البضع من ثلاث الى تسع ، وأكثر ما يطلق على السبع ، وعليه الاكثرون في مدة سجن يوسف من أولها الى آخرها ، وما قالوه من أن السبع كانت بعد وصيته للساقي وانه لبث قبلها خمس سنين فلا دليل عليه

(٤٣) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٤) قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٥) وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٦) يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ، لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٧) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٩) ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ

(رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف لها بالقول والفعل)

كان ملك مصر في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالرعاة [الهكسوس] كما يأتي في التفسير الاجمالي، وقد رأى رؤيا عجز رجال دولته من الوزراء والكهنة والعلماء عن تأويلها، فكان عجزهم سبباً للجوء إلى يوسف عليه السلام واتصاله بالملك وتوليه منصب الوزير المفوض عنده كما بين في الآيات مبدأ وغاية، قال تعالى

٤٣ ﴿وقال الملك﴾ هذا السياق عطف على سياق صاحبي السجن وما قالاه في قص رؤاهما على يوسف ﴿إني أرى﴾ أي رأيت فيما يرى النائم رؤيا جلية ماثلة

أمامي كأني أراها الآن ﴿ سبع بقرات سمان ﴾ جمع سمينة وكذا سمين كما يقال رجال ونساء كرام وحسان ﴿ يأكلهن سبع عجاف ﴾ أي سبع بقرات مهازيل في غاية الضعف والهزال، وهو جمع عجفاء سماعاً لا قياساً فان جمع أفعل وفعلاء وزان فعل بالضم كحمر وخضر، وحسنه هنا مناسبته لسمان ﴿ وسبع سنبلات خضر ﴾ عطف على سبع بقرات وهي جمع سنبلة كقنفذة ما يخرجه الزرع كالقمح والشعير فيكون فيه الحب ﴿ وأخر يابسات ﴾ عطف على ما قبله، واليابس من السنبل ما آن حصاده، واستغني عن إعادة سبع هنا بدلالة مقابله في البقرات عليه ﴿ يا أيها الملأ ﴾ يخاطب رجال دولته وأشراف قومه ﴿ أفتوني في رؤياي ﴾ ما معناها وما تدل عليه فيكون مآلا لها ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أي تعبرونها ببيان المعنى الحقيقي المراد من المعنى الخيالي، كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة الى أخرى فاللام فيها للبيان والتقوية، فعبرها وعبورها بمعنى تأويلها وهو الاخبار بمآلها الذي يقع بعد

٤٤ ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي هي أو هذه الرؤيا من جنس أضغاث الاحلام أي الاحلام المختلطة من الخواطر والأخيلة التي يتصورها الدماغ في النوم فلا ترمي إلى معنى مقصود، وأصل الاضغاث جمع ضغث بالكسر وهو الحزمة من النبات أو العيدان، والاحلام جمع حلم بضمتين ويسكن للتخفيف وهو ما يرى في النوم يقال حلم كنصر واحتلم، ومنه بلوغ الحلم، والحلم قد يكون واضح المعنى كالافكار التي تكون في اليقظة وقد يكون - وهو الاكثر - مشوشا مضطربا لا يفهم له معنى وهو الذي يشبه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب بينها، وهو ما تبادر الى أفهامهم من نوعي البقر والسنابل ﴿ وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾ يحتمل قولهم هذا انهم ليسوا بأولي علم بتأويل هذه الاحلام المختلطة المضطربة وانما يعلمون تأويل غيرها من المنامات المعقولة المفهومة، ويحتمل نفي العلم بجنس الاحلام لانها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى بعيد تدل عليه الصور المتخيلة في النوم وتنتهي اليه، كما ينكر أهل العلم المادي الآن أن

يكون لشيء من هذه الرؤى والاحلام تأويل صحيح ، ولكن قدماء المصريين كانوا يعنون بها . وسنبين الحق في ذلك في الخلاصة الكلية لتفسير السورة كما تقدم

٤٥ ﴿ وقال الذي نجا منهما ﴾ أي من صاحبي السجن وهو الساقي أحد أركان القصة ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾ أي والحال انه تذكر بعد طائفة طويلة من الزمن وصية يوسف اياه بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك (وأصل ادكر اذتكر – افتعال من الذكر أبدلت تاؤه دالا مهملة لقرب مخرجها وأدغمت فيها الذال المعجمة ، وهو الفصيح ، وقرىء في الشواذ بالذال المعجمة وهي لغة ﴿ أنا أنبؤكم بتأويله ﴾ أي أخبركم به أو بمن عنده علم تأويله ﴿ فأرسلون ﴾ اليه أو الى السجن فهو فيه ، وروي عن ابن عباس ان السجن كان خارج البلد . وفي خطط المقريزي : قال القضاعي سجن يوسف ببوصير من عمل الجيزة أجمع أهل المعرفة من أهل مصر على صحة هذا المكان وفيه أثر نبيين أحدهما يوسف سجن فيه المدة التي ذكر أن مبلغها سبع سنين ، والآخر موسى ، وقد بنى على أثره مسجد يعرف بمسجد موسى الخ وأمثال هذه الاخبار لا يوثق بها

٤٦ ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أي قال فأرسلوني اليه فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجز عنه الملأ من تأويل رؤيا الملك ، مناديا له باسمه وما ثبت عنده من لقبه [الصديق] وهو الذي بلغ غاية الكمال بالصدق في الاقوال والافعال وتأويل الاحاديث وتعبير الاحلام ، شارحا له رؤيا الملك بنصها – وهو بسط في محله بعد إيجاز في محله – قائلا ﴿ أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ وعلل هذا الاستفتاء بما يرجو أن يحقق ليوسف أمله بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بعلمه فقال ﴿ لعلي أرجع الى الناس ﴾ أولي الامر ، وأهل الحل والعقد ، بما تلقيه إلي من التأويل والرأي ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ مكانتك من العلم فينتفعون به ، أو يعلمون ما جهلوا من تأويل رؤيا الملك وما يجب أن يعملوا

بعد العلم به ، فلعل الاولى تعليل لرجوعه اليهم بافتائه، ولعل الثانية تعليل لما يرجوه من علمهم بها ، والرجاء توقع خير بوقوع أسبابه

٤٧ ﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا ﴾ أي قال يوسف مبينا للملأ ما يجب عليهم عمله لتلافي ماتدل عليه هذه الرؤيا من الخطر على البلاد والعباد قبل وقوع تأويلها الذي بينه في سياق هذا التدبير العملي ، وهذا ضرب من بلاغة الاسلوب والايجاز ، لاتجد له ضريبا في غير القرآن ، خاطب أولي الأمر بما لقنه للساقي خطاب الآمر المأمور الحاضر ، فأوجب عليهم الشروع في زراعة القمح دائبين عليه دأبا مستمرا كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) سبع سنين بلا انقطاع . قال الزمخشري [تزرعون] خبر في معنى الامر كقوله تعالى (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون)وإنما يخرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به ، فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه ، والدليل على كونه في معنى الامر قوله ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ أى فكل ما حصدتم منه في كل زرعة فاتركوه أي ادخروه في سنبله بطريقة تحفظه من السوس بعدم سريان الرطوبة اليه ،الحب لغذاء الناس والتبن لغذاء البهائم والدواب: ﴿ إلا قليلا مما تأكلون ﴾ في كل سنة من هذه السنين مع مراعاة القصد والاكتفاء بما يسد حاجة الجوع فان الناس يقنعون في سني الخصب والرخاء بالقليل، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان، والسنبلات السبع الخضر على ظاهرها في كون كل سنبلة تأويلا لزرع سنة

٤٨ ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ أى سبع سنين شداد في محلهن وجدبهن ﴿ يأكلن ماقدمتم لهن ﴾ أى يأكل أهلهن كل ماقدمتم لهم ، وهو من إسنادهم الى الزمان والدهر ما يقع فيه ، ويكثر إسناد العسر والجوع الى سني الجدب :يقال أكلت لنا هذه السنة كل شيء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ، ولا سبدا ولا لبدا . أى لاشعرا ولا صوفا . وهذا تأويل للبقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات ﴿ الا قليلا مما تحصنون ﴾ أى تحرزون وتدخرون للبذر

٤٩ ﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ الذي ذكر وهو السبع الشداد ﴿عام فيه يغاث الناس﴾ أي فيه يغيثهم الله تعالى من الشدة أتم الاغاثة وأوسعها وهي تشمل جميع أنواع المعونة بعد الشدة: يقال غاثه يغوثه غوثا وغواثا (بالفتح) وأغاثه إغاثة اذا أعانه ونجاه، وغوّث الرجل: قال «واغوثاه» واستغاث ربه استنصر وسأله الغوث، ويجوز أن يكون من الغيث وهو المطر اذ يقال غاث الله البلاد غيثا وغياثا اذا أنزل فيها المطر، والاول أعم وهو المتبادر هنا، ولا يقال ان الثاني لايصح، لان خصب مصر يكون بفيضان النيل لا بالمطر فان فيضانه لايكون الا من المطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان، فاعتراض بعض المستشرقين من الافرنج وزعمه أن الكلمة من الغيث وأنها غير جائزة جهل زينه لهم الشيطان تلذذاً بالاعتراض على لغة القرآن ﴿وفيه يعصرون﴾ ماشأنه أن يعصر من الأدهان التي يأتدمون بها ويستصبحون كالزيت من الزيتون والقرطم وغيره، والشيرج من السمسم وغير ذلك، والاشربة من القصب والنخيل والعنب. والمراد ان هذا العام عظيم الخصب والاقبال، يكون للناس فيه كل مايبغون من النعمة والاتراف، والانباء بهذا زائد على تأويل الرؤيا لجواز أن يكون العام الاول بعد سني الشدة والجدب دون ذلك، فهذا التخصيص والتفصيل لم يعرفه يوسف إلا بوحي من الله عز وجل لامقابل له في رؤيا الملك ولا هو لازم من لوازم تأويلها بهذا التفصيل، وقرأ حمزة والكسائي تعصرون بالخطاب كتزرعون وتحصنون، وقراءة الجمهور عطف على يغاث الناس، وفائدة القراءتين، بيان المنة على الفريقين من غائب محكي عنه، وحاضر مخاطب بما يكون منه

---

(٥٠) وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ، فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ؟ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥١) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن

نَفْسِهِ؟ قُلْنَ حَشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْئَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ، أَنَا رَوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّدِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

من المعلوم بالقرينة أن الرسول بلغ الملك وملأه ماقاله له يوسف عليه السلام وأنهم فهموا منه أن الخطب جلل ،وان هذا الرجل ذوعلم واسع ،وتدبير لايستغنى عنه فيما يصفه من حالي السعة والشدة، وقد طوي ذلك إيجازا لانه يعلم من قوله تعالى ٥٠ ﴿وقال الملك ائتوني به﴾ لأسمع كلامه بأذني، وأختبر تفصيل رأيه ودرجة عقله بنفسي ﴿فلما جاءه الرسول﴾ وبلغه أمر الملك ﴿قال ارجع الى ربك فاسأله﴾ قبل شخوصي اليه ووقوفي بين يديه ﴿مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي ماحقيقة أمرهن معي، فالبال الامر الذي يهتم به ويبحث عنه ، فهو يقول سله عن حالهن ليبحث عنه ويعرف حقيقته فلا أحب أن آتيه وأنا متهم بقضية عوقبت عليها أو عقبها بالسجن وطال مكثي فيه وأنا غير مذنب فأقبل منه العفو ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ وقد صرفه عني فلم يمسني منه سوء معهن، وربك لايعلم ماعلم ربي منه ،

وفي هذا التريث والسؤال فوائد جليلة في أخلاق يوسف عليه السلام وعقله وأدبه في سؤاله (منها) دلالته على صبره وأناته، وجدير بمن لقي مالقي من الشدائد أن يكون صبورا حليما ، فكيف إذا كان نبياً وارثاً لابراهيم الذي وصفه الله بالأواه الحليم؟ وفي حديث أبي هريرة في المسند والصحيحين مرفوعا « ولو لبثت في السجن مالبث يوسف لأجبت الداعي» وفي لفظ لاحمد «لو كنت أنا لأسرعت الاجابة وما ابتغيت العذر» وأما ما رواه عبد الرزاق عن عكرمة في تعجب النبي من صبره

وكرمه وكونه لو كان مكانه لما أول لهم الرؤيا حتى يشترط عليهم أن يخرجوه من السجن ، ولو أتاه الرسول لبادرهم الباب .. فهو مرسل لايحتج به

(ومنها) عزة نفسه وحفظ كرامتها إذ لم يرض أن يكون متهما بالباطل حتى تظهر براءته ونزاهته (ومنها) وجوب الدفاع عن النفس وإبطال التهم التي تخل بالشرف كوجوب اجتناب مواقفها (ومنها) مراعاته النزاهة بعدم التصريح بشيء من الطعن على النسوة وترك أمر التحقيق إلى الملك يسألهن ما بالهن قطعن أيديهن وينظر مايجبن به (ومنها) أنه لم يذكر سيدته معهن وهي أصل الفتنة وفاء لزوجها ورحمة بها لأن أمر شغفها به كان وجدانا قاهرا لها، وإنما اتهمها أولا عند وقوفه موقف التهمة لدى سيدها وطعنها فيه دفاعا عن نفسه، فهو لم يكن له بد منه

٥١ ﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ الخطب الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب والبحث لغرابته أو إنكاره ومنه قول ابراهيم للملائكة (فما خطبكم أيها المرسلون) وقول موسى في قصة العجل (فما خطبك ياسامري؟) وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتهما عن مورد السقيا (ماخطبكما) وهذه الجملة بيان لجواب سؤال مقدر دل عليه السياق كأمثاله. والمعنى ان الرسول بلغ الملك قول يوسف وأنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق مسألة النسوة، فجمعهن وسألهن : ماخطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه هل كان عن ميل منه اليكن ، ومغازلة لكن قبلها ، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ؟ أم ماذا كان سبب إلقائه في السجن مع المجرمين ؟ ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي معاذ الله ما علمنا عليه أدنى شيء يشينه ويسوءه لا كبير ولا صغير ، ولا كثير ولا قليل ، هذا ما يدل عليه نفي العلم مع تنكير سوء ودخول « من » عليها وهو أبلغ من نفي رؤية السوء عنه ﴿قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق﴾ أي ظهر بعد خفائه وانحسرت رغوة الباطل عن محضه ، وهو تكرار من حصه إذا قطع منه حصة بعد

حصة (بالكسر) وهي النصيب لكل شريك في شيء، مثل كبكب وكفكف الشيء إذا كبه وكفه مرة بعد أخرى، فهي تقول ان الحق في هذه القضية كان في رأي الذين بلغهم موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف، لكل منا حصة، بقدر ما عرض فيها من شبهة، والآن قد ظهر الحق في جانب واحد لا خفاء فيه ولا شبهة عليه، فان كان عواذلي شهدن بنفي السوء عنه وهي شهادة نفي، فشهادتي له على نفسي شهادة إثبات؟

﴿أنا راودته عن نفسه﴾ وهو لم يراودني، بل استعصم وأعرض عني ﴿وانه لمن الصادقين﴾ فيما اتهمني به من قبل، وحمله أدبه الأعلى ووفاؤه الاسمى لمن أكرم مثواه وأحسن اليه — على السكوت عنه الآن، ونحن جزيناه بالسيئة على الاحسان، وقد أقر الخصم وارتفع النزاع

٥٢ ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ أي ذلك الاقرار بالحق له، والشهادة بالصدق الذي علمته منه: ليعلم الآن – إذ يبلغه عني – أني لم أخنه بالغيب في حال غيبته عني وغيبتي عنه منذ سجن إلى الآن بالنيل من أمانته، أو الطعن في شرفه وعفته، بل صرحت لجماعة النسوة بأنني راودته فاستعصم وهو شاهد، وها أنا ذا أقر بهذا أمام الملك وملائه وهو غائب

﴿وان الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ من النساء والرجال، بل تكون عاقبته الفضيحة والنكال، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا، وسجناه فبرأه وفضح مكرنا، حتى شهدنا له في هذا المقام السامي على أنفسنا، وهذا تعليل آخر لاقرارها ثم إنها على تبرئة نفسها من خيانته بالغيب اعترفت في الآية التالية بأنها لا تبرئ نفسها من الكيد له بالسجن، وان ذلك كان من هوى النفس الامارة بالسوء، لان المراد منه تذليله لها، وحمله على طاعتها،

وفيها وجه آخر وهو انها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أني لم أخنه بالفعل فيما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلى بينه وبيني، فاستعصم وامتنع، فبقي عرضه أي الزوج مصونا، وشرفه محفوظا، ولئن برأت يوسف من

الاثم فما أبرىء منه نفسي، فان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي، وسيأتي أن من رحمته تعالى ببعض الأنفس صرفها عن الامر السوء وهو أعلى الدرجات، ومنها حفظه إياها من طاعة الامر بوازع منها، وهي دون ما قبلها، ومنها عدم تيسير عمل السوء لها بامتناع من يتوقف عليه ذلك العمل على حد" (ان من العصمة ألا تجد)

هذا هو المتبادر من نظم الآيتين المناسب للمقام بغير تكلف، ولكن ذهب الجمهور اتباعا للروايات الخادعة الى أنها حكاية عن يوسف عليه السلام يقول: ذلك الذي كان مني إذ امتنعت من إجابة الملك واقترحت عليه التحقيق في قضية النسوة ليعلم العزيز من التحقيق أني لم أخنه في زوجه بالغيب الخ وانه صرح بعد ذلك بأنه لا يبرىء نفسه من باب التواضع وهضم النفس، وهذا المعنى يتبرأ منه السياق والنظم ومرجع الضمير. ومن العجب ان ابن جرير اقتصر عليه، ولكن قال العماد ابن كثير على كثرة اعتماده عليه مرجحا للقول الاول: وهذا هو القول الاشهر والاليق والانسب بسياق القصة ومعاني الكلام وقد حكاه الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الامام ابو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة اهـ. وشيخ الاسلام ابن تيمة من أعلم المحدثين بنقد الروايات فهو ما نصر هذا القول إلا وقد فند روايات القول الآخر

وقد علم من جملة الكلام أن يوسف عليه السلام كان مثل الكمال الانساني الاعلى للاقتداء به في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من فتنة النسوة، وان امرأة العزيز التي اشتهرت في نساء مصر بل نساء العالم بسوء القدوة في التاريخ القديم والحديث كان أكبر اثمها على زوجها، وكانت هي ذات مزايا في عشقها الذي كان اضطراريا لا علاج له إلا الحيلولة بينها وبين هذا الشاب الذي بلغ منتهى الكمال في الحسن والجمال، فمن مزاياها انها لم تتطلع إلى غيره من الرجال إجابة لداعية الجنسية للتسلي عنه بعد اليأس منه، وأنها لم تتهمه بالجنوح للفاحشة قط، وكل ما قالته لزوجها إذ فاجأهما لدى الباب (ماجزاء من اراد بأهلك سوءا) تعني به همه بضربها، وانها في خاتمة الامر أقرت بذنبها في مجلس الملك الرسمي ايثاراً للحق وإثباتا لبراءة الحق،

فأية مزايا أظهر من هذه لمن ابتليت بمثل هذا العشق ؟ وفي تاريخ الفردوسي أديب الفرس أنه صنف قصة غرامية في (زليخا ويوسف) صور فيها العفة بأجمل صورها، وزليخا (بالفتح) اسم امرأة العزيز في أشهر تواريخنا وقيل إن اسمها راعيل.

وسنفصل عبر القصة في التفسير الاجمالي للسورة إن شاء الله تعالى

***

(٥٣ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية تتمة إقرار امرأة العزيز على الراجح المختار وقيل من قول يوسف (ع.م) ويرده عطفه على إقرارها وعطف أمر الملك بالاتيان به من السجن عليه، وقد جعلت أول الجزء، لأن تقسيم القرآن إلى الاجزاء والاحزاب مراعى به مقادير الكلم العددي دون المعاني، وهذا لا يمنع من يجعل ورده من القرآن جزءاً في كل يوم ليختمه في كل شهر أن يزيد أو ينقص في القراءة آية أو اكثر ليقف عند ما يتم به سياق سابق أو معنى فيه، ثم يبدأ بعده بسياق آخر أو معنى مستقل منه في ورد اليوم الذي بعده

تقدم أن قولها (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) يجوز أن يراد به يوسف (ع.م) لأن كلامها في جواب الملك عما سألها هي وسائر النسوة عن خطبهن في مراودته. ويجوز أن تعني به زوجها للعلم به من قرينة الحال وان لم يذكر، والأول أظهر، وهذه الآية في معنى الاستدراك على ذلك النفي فهي تقول

٥٣ ﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ في دعوى عدم خيانتي إياه بالغيب من كل سوء وعيب غير هذه الخيانة وما عرف أمره ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ أي النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء بداعي الشهوات البدنية والاهواء الغضبية،

ونزغات الوسوسة الشيطانية، ومنها التحريض على سجن يوسف وسوء النية فيه، وكانت مما يسوءه ويسوء الزوج من ناحيتين مختلفتين ، وعن ابن كثير ونافع قراءة (بالسوّ) بتشديد الواو على لغة من يقلب الهمزة واوا ويدغمها في الواو ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا انفسا رحمها ربي رحمة خاصة فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف هذا هو المعنى المتبادر من سياق القصة ، ويجوز في الجملة نفسها أن يجعل الاستثناء منقطعا بمعنى لكن رحمة ربي هي التي قد تكفها عن الأمر بالسوء أو تحفظها من إجابة دعوته وطاعة أمره أو تحول دونه ، وأن تكون (ما) زمانية ، والمعنى أن من شأن النفس أن تكون أمارة بالسوء في عامة الاوقات إلا وقت رحمة ربي الذي يوفقها فيه لمراقبته والاعمال الصالحة التي ترضيه ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ تعليل للاستثناء بأن مقتضى مغفرته ورحمته تعالى ان يصرف بعض الانفس عن الامر بالسوء أو عن طاعتها فيه أو يصرف السوء نفسه عنها ويحول بينه وبينها ، وأن يغفر لمن يطيع أمرها فيقترف السوء ثم يتوب إليه منه

وقد أخذ علماء النفس وصفاتها من آيات القرآن أن أنفس البشر على ثلاث درجات أدناها الامارة بالسوء ، وأعلاها النفس المطمئنة بذكر الله الراضية عنه المرضية عنده ،وهي التي يخاطبها تعالى في آخر سورة الفجر بقوله (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الخ ، وبينهما التي سماها في أول سورة القيامة بالنفس اللوامة ، وهي التي تلوم صاحبها على كل ذنب وتقصير في طاعة الله ومعرفته ،ومن التقصير في طاعته التقصير في حقوق عباده الشرعية ولا سيما أولي القربى والجيران والمحتاجين إلى البر ، وكذا الحقوق العامة للملة والأمة . وبعضهم يجعل النفس الراضية والنفس المرضية قسمين من أقسام النفس المطمئنة ، ولفقهاء الصوفية تفصيل لهذه الانفس وتربيتها فيه علم يزيد المطلع عليه بصيرة في دينه وتربية نفسه ونفس غيره من ولد وتلميذ ومريد وفي معرفة ربه

كان الفصل الاول من قصة يوسف (ع . م) في نشأته وما وقع بينه وبين إخوته وانتهى ببيعه بثمن بخس، والفصل الثاني في حياته الاولى في مصر وهو قسمان

أحدهما في بيت عزيز مصر وثانيهما في السجن ، وكانت هذه الاطوار كلها أطوار بؤس وشدائد ، رباه الله تعالى بها أكمل تربية ، وجعله خير أسوة لأفراد الناس في عفته ونزاهته وصدقه وأمانته ، وخير أهل لما بعدها من إدارة ملك مصر ، وإتمام النعمة عليه وعلى آل يعقوب كما تنبأ أبوه من قبل ،

الفصل الثالث

(من قصة يوسف ، توليته حكومة مصر وما وقع لاخوته معه فيها)

(٥٤ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٥) قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ ٱلأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

٥٤ ﴿ وقال الملك ﴾ بعد انتهاء التحقيق في أمر النسوة وظهور براءة يوسف فيه من كل سوء وهو ما اشترطه في قبول الدعوة أول مرة ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي أحضروه من السجن الي وقد وفينا له بما اشترطه لمجيئه - أجعله خالصاً لنفسي لا يشاركني أحد فيه من وزير يدخل بيننا في إدارة الملك ولا حاجب يبلغه عني ويبلغني عنه - فأتوه به ﴿ فلما كلمه ﴾ وسمع ما أجابه به ﴿ قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي انك في هذا الزمن لدى حضرتنا الملكية الخاصة ذو مكانة ثابتة ومنزلة عالية ، وأمانة تامة موثوق بها ، فأنت مفوض في إدارة ملكنا غير منازع في تصرفك ولا متهم في أمانتك ، وفي الآية تنبيه إلى تأثير الكلام في إظهار معارف الانسان وإرادته وأخلاقه وإقناع مخاطبه بما يريده منه

فهم الملك استحقاقه لهذه الثقة من فحوى كلامه وما كان من أمانته في بيت وزيره العزيز على ماله وعرضه وحسن تصرفه في كل ذلك ، ومن سيرته الحسنة في السجن ، وما علم عنه فيه من علم وفهم ، وتأويل الرؤيا بما يعبر عن معناها ، ويرشد إلى ما يجب

من العمل فيما تدل عليه من التدبير، ثم ما كان من حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة، فدلته جملة هذه الاعمال والاحوال والاخلاق على ما استحق به تلك المكانة والامانة. وهذا يدل على أن ذلك الملك كان وافر العقل، محبا للعدل، بصيرا بمزايا الرجال، وهذه الاخيرة يقل في الملوك من يقدرها قدرها، ويعطيها حقها، فلا تصرفه عنها الاحوال العارضة ككون الرجل غريبا أو اجنبيا أو فقيرا أو مملوكا أيضاً، وما قام ملك ولا سقط الا بهم، وقد قال عمر اذ ظهر له خطؤه في تقدير رجل: رحم الله أبابكر كان أعرف مني بالرجال

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون ترجمان بينهما، وكذلك كان يوسف يكلم العزيز وامرأته من أول يوم وكذا كلم النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لرؤيته عندها وصاحبيه في السجن بالاولى، وذلك أن لغة يوسف كانت فيما يظهر لغة جده ابراهيم وأولاده وأحفاده وهي لغة حكام وطنه الكلدانيين وكانوا من العرب القحطانيين، ثم تفرعت من هذه العربية الاسماعيلية فالمضرية والعبرانية والسريانية والفينيقية، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب أيضا وهم الذين يسمونهم الرعاة (الهكسوس) وفي التواريخ العربية أن ملك مصر هذا كان يسمي الوليد بن الريان، ولو لا هذا وذاك لكان المتبادر أن يوسف تعلم لغة مصر في هذه المدة الطويلة في مصر وكلمه ملكها بها، على أن العربية أصيلة وعريقة في مصر لغة وأدبا، وعرقا ونسبا، وانما كان الفراعنة وأشياعهم يعدون ملوك الرعاة العرب غرباء وأجانب لعصبية الملك، وقد أثبت المرحوم أحمد باشا كمال العالم الاثري أن الهيروغليفية ممزوجة بالعربية المضرية من قبلهم، ولو عرفت العربية القحطانية القديمة لجاز ان تكون هي أصلها، ويرى بعض علماء الغرب أن اللغة العربية ما غلبت بعد الاسلام وثبتت إلا في بلاد الشعوب التي هي عربية الاصل أو للعرب فيها عرق واشج، ونسب راسخ

---

٥٥ ﴿ قال اجعلني على خزائن الارض ﴾ هذا جواب سؤال تقديره ماذا قال يوسف للملك وقد سمع منه ما سمع ورأى من تأثير لقائه وكلامه في نفسه ما رأى؟ أي قال ولني خزائن أرضك كلها أكن المشرف عليها لأتمكن من تنفيذ ما أولته من رؤياك بنفسي

فيكون منقذاً للبلاد والعباد من المجاعة والمراد بالخزائن - وهي جمع خزينة - الأهراء التي تخزن فيها غلات الارض أو ما يشمل كل مال ﴿إني حفيظ عليم﴾ أي شديد الحفظ لما تخزن فيها بحيث لا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه، راسخ العلم بطرق حفظه ووجوه تصريفه والانتفاع به، فهو قد طلب أهم ما تتوقف عليه إدارة الملك وسياسته، تنمية العمران وإقامة العدل فيه، فكان مضطراً إلى تزكية نفسه بالحق فيه فالجملة تعليل لما قبلها، ونحن نرى دهاة الافرنج في كل بلاد يستولون أو يسيطرون عليها، يعنون بادىء ذى بدء بالاستيلاء على إدارة الامور المالية فيها، لأنه يتوقف على تنظيمها تنظيم غيرها من أمور الدولة، وبهذا ترسخ أقدامهم فيها، فاذا لم يسرفوا في تحويل الثروة إلى أنفسهم وأبناء جلدتهم فضلهم أهل البلاد على أنفسهم أي على ملوكهم وحكامهم، او يهديهم الله للعدل وحسن الادارة فتعود الامة الى تفضيلهم بعد الثقة بهم. وأما الجاهلون الظالمون فانهم يسرفون في إفساد النظام المالي واحتكار الثروة لانفسهم حتى يمقتهم أبناء جلدتهم ويفضلوا الاجنبي عليهم، وما أضاع ملك المسلمين وغيرهم من الشرقيين في هذه القرون الاخيرة إلا الجهل والتقصير في إدارة النظام المالي وتدبير الثروة وحفظها سواء في ذلك الدولة والامة

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

هذا بيان لسنة الله تعالى في تأسيس الرياسة الفضلى والحكومات المثلى في الامم، ونيل الافراد المناصب العالية فيها وإن كان أهلها غرباء عنها وافدين عليها. يقول تعالى

٥٦ ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الارض﴾ أي ومثل هذا التمكين الذي سبق

بيان أسبابه ومقدماته مكننا ليوسف في أرض مصر وقد جيء به مملوكا فأصبح مالكا ، فهذا التشبيه في « كذلك » ينبيء عن علم غزير هو موضع العبرة في القصة، وهو إعداده تعالى إياه بما تحلى به من الصبر واحتمال الشدائد والعفة والامانة والصدق

﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ﴾ يقال أصابه الشيء وأصابه الله به ، أي نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى وغير ذلك من نعم الدنيا من نشاء من عبادنا بمقتضى سنتنا في الاسباب الكسبية ، وموافقة الاحداث الكونية والاجتماعية

﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ في أعمالهم بشكر هذه الرحمة والنعم بل نأجرهم عليها في الدنيا بالزيادة والهناءة فيها ، فان نعم الدنيا مبذولة لكل من يطلبها من طرقها وأسبابها، ولكن المحسنين للتصرف فيها هم الذين لا يضيع عليهم شيء من أجرها في الدنيا كالذي يصيب المسيئين من المنغصات، وغوائل الاسراف والبطر والخيلاء ، وإثارة أضغان المظلومين والحساد ، والخوف على النعم منهم ومن غيرهم. وقلما يصيب المحسنين الشاكرين شيء من هذا . وما عسى أن يصيبهم منه يكون عليهم أخف، ويكونون عليه أصبر ، ولا تنس هنا قوله تعالى في يوسف (٢٢ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) وقوله حكاية عن صاحبي السجن (٣٦ إنا نراك من المحسنين)

---

٥٧ ﴿ ولأجرُ الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ هذه جملة مؤكدة بالقسم مثبتة أن أجر الآخرة وهو نعيمها الذي يكون فيها للجامعين بين الايمان والتقوى خير لهم مَن أجر الدنيا لاهلها وإن بلغوا سلطان الملك ومتاعه ، ليكون المؤمنون المتقون المحرومون من هذا النعيم راضين عن الله عز وجل، موقنين بأن ما أعده لهم في الآخرة يصغر ويتضاءل تجاهه كل ما في الدنيا من مال وجاه وزينة وشهوات

ولا شك أن الجامعين بين السعادتين أكمل ، وفضل الله عليهم أعظم، اذا هم أعطوا النعمة حقها من الشكر ، قال فقراء المهاجرين (رض) للنبي ﷺ يارسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم قال « ماذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق

قال ﷺ « أفلا اعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون احد افضل منكم ، إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » قالوا بلى يارسول الله قال « تسبحون وتكبرون وتحمدون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » رواه الشيخان عن ابي صالح عن ابي هريرة قال ابو صالح فرجع فقراء المهاجرين الى رسول الله ﷺ فقالوا سمع اخواننا اهل الاموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »

(٥٨) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٩) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ؟ (٦٠) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦١) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦٢) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

جاء في كتب التاريخ وأقدمها سفر التكوين أن يوسف عليه السلام عني أشد العناية بتنفيذ ماذكره من التدبير في تأويل رؤيا الملك فبنى الاهراء العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الاولى فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الاقطار القريبة منها وأقربها اليها فلسطين من بلاد الشام، واشتهر ما فعله يوسف (ع.م) في مصر ومافيها من الخير وحسن التصرف في بيع الغلال ، أمر يعقوب (ع . م) أولاده بأن يرحلوا الى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة ونقد فضة ويشتروا به قمحا لان المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم ، والمقصود من العبرة الدينية والادبية في هذه الاخبار هو ما وقع بين يوسف وإخوته في مصر فاقتصر عليه في التنزيل وهو

٥٨ ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ أي جاءوا مصر يمتارون ﴿ فدخلوا عليه ﴾ لأن أمر الميرة وشراء الغلال بيده ورهن أمره ﴿ فعرفهم ﴾ إذ دخلوا بلا تردد ولا طول تأمل كما يفهم من العطف بالفاء إذ كان عددهم وشكلهم وزيهم محفوظا في خياله لنشوئه بينهم، وما قاساه منهم في آخر عهده بهم وكان في سن السادسة عشرة على رواية سفر التكوين وقد استكثرناها، ويجوز أن يكون هنالك سبب آخر لسرعة هذه المعرفة كأن يكون عمال يوسف وعبيده لا يدخلون عليه إلا من عرفوا أمرهم وعرضوهم عليه ونالوا إذنه بادخالهم ﴿ وهم له منكرون ﴾ أي والحال أنهم كانوا إذ دخلوا عليه منكرين له لتغير شكله بالدخول في سن الكهولة، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته وما كان من حاجتهم كغيرهم لبره وعطفه، وكل ذلك مما يحول دون إطالة النظر اليه والتثبت من معارف وجهه، وكانوا يظنون انه هلك أو طوحت به طوائح الزمن بالانتقال من سيد الى آخر، فلو فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لعدوها مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض عادة، ولم يخطر ببالهم ان أخاهم وصل الى هذه العظمة

٥٩ ﴿ فلما جهزهم بجهازهم ﴾ أي أصلحهم بعدتهم وهي عدة السفر من الزاد وما يحتاج اليه المسافرون وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة اه من الكشاف

قال الفيومي في المصباح المنير : جهاز السفر أهبته وما يحتاج إليه في قطع المسافة بالفتح وبه قرأ السبعة (وذكر الآية) والكسر لغة قليلة، وجهاز العروس والميت باللغتين أيضاً يقال جهزها أهلها بالتثقيل، وجهزت المسافر بالتثقيل أيضا هيأت له جهازه وما يحتاج إليه في قطع المسافة اه فتجهيز يوسف إياهم بالجهاز اللائق بهم الكافي لهم هو غير الميرة التي جاؤا لامتيارها أي الطعام الذي جاؤا لشرائه، وهو يدل على انهم أخذوا الميرة أيضاً فهو من إيجاز القرآن الدقيق، وجعله الزمخشري شاملا له بالمعنى لاستلزامه إياه . وقد نقل البيضاوي عبارته ثم قال والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدة السفر وما يحمل من بلد إلى آخر وما تزف به المرأة إلى زوجها اه فجعل الميرة وغيرها من البضائع داخلة في معنى الجهاز وليس كذلك في أصل

اللغة . ﴿قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم﴾ يريد شقيقه بنيامين ، وفي سفر التكوين أنه كان استقبالهم عن أنفسهم متنكراً لهم إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاؤا ليروا عورة البلاد فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم (١٣:٤٢ فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخاً نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان، وهو ذا الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود ١٤ فقال لهم يوسف ذلك ما كلمتكم به قائلا : جواسيس أنتم ١٥ بهذا تمتحنون، وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجيء أخيكم الصغير إلى هنا) الخ (٢٥ ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله ، وأن يعطوا زاداً للطريق ، ففعل لهم هكذا) اه وهو بمعنى ما قلنا ويدل عليه قوله ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل﴾ أي أتمه وأجعله وافيا كافيا ﴿وأنا خير المنزلين﴾ أي وأنا على هذا خير المضيفين للضيوف ، وكان قد أحسن ضيافتهم ومن تمامها تجهيزهم بالزاد الكافي لهم مدة سفرهم، والميرة لا تقتضي هذا ولا تستلزمه ، يقال أنزلت الضيف نزلا وخير منزل بضم الميم وفتح الزاي فهو نزيل- فعيل بمعنى مفعول- والنزل بضمتين طعام النزيل الذي يهيأ له ، وهو مستعمل في التنزيل، واستدل بقوله هذا على ضعف رواية اتهامه إياهم بالتجسس على كون هذه التهمة لا تليق بمن دون الصديق النبي وهو يعلم بطلانها إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة

٦٠ ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ فإذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن معكم منع جنس الكيل أن يكال لكم في حضرتي أو ملكي فضلا عن إيفائه وإكماله الذي كان لكم بأمري ﴿ولا تقربون﴾ بكسر النون الدالة على ياء المتكلم المحذوفة ، وهو يجوز أن يكون نفيا معطوفا على ماقبله وأن يكون نهيا عن القرب منه فضلا عن إنزاله إياهم في ضيافته خير ضيافة لا توجد عند غيره ، وناهيك بما بين منزلته من الملك والحكم ، ومنزلتهم فيمن لا يحصى من الجائعين الممتارين من البعد

٦١ ﴿قالوا سنراود عنه أباه﴾ أي سنبذل جهدنا في مراوغة أبيه وروده وتحويله

عن إرادته في ابقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك حتى نقنعه بارساله معنا كما تحب ﴿وإنا لفاعلون﴾ ذلك قطعا وعدا مؤكدا لا ننساه ولا نتوانى فيه

٦٢ ﴿وقال لفتيانه﴾ أي غلمانه الكيالين، وهذه قراءة حمزة والكسائي وحفص، وهو جمع كثرة لفتى، وقرأ الباقون (لفتيته) وهو جمع قلة فهما كاخوة وإخوان ولا وجه للتفاضل بينهما ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ التي جاؤا بها لشراء الطعام ﴿في رحالهم﴾ أي أوعيتهم وهي جمع رحل بالفتح يطلق على كل ما يعد للرحيل (السفر) من وعاء للمتاع ومركب وحلس للبعير ورسن ﴿لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ أي رجاء أن يعرفوا لنا حق إعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بغير ثمن إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه فانهم انما يفتحونها هنالك ﴿لعلهم يرجعون﴾ الينا طمعا في برنا وإن كانوا غير محتاجين إلى امتيار آخر لضرورة القوت. ويجوز أن يكون رجاء الرجوع منوطا بمعرفة البضاعة من غير تقدير معرفة حق ردها اليهم وما فيه من المنة والكرم، وهو أن يعتقدوا أن فتيان يوسف نسوها أو وضعوها في رحالهم خطأ؟ وهم لا يستحلون أكلها بالباطل فيرجعون لاعادتها وإيصالها إلى أهلها

---

(٦٣) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٤) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

---

٦٣ ﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ أي صدر حكم العزيز ولي الأمر في مصر بمنع الكيل لنا في المستقبل، وأخبروه بما قاله لهم ورتبوا عليه

قولهم ﴿ فأرسل معنا أخانا ﴾ بنيامين ﴿ نكتل ﴾ أي نتمكن من أخذ ما نطلب من الطعام بالكيل المعلوم بأن نرفع المانع من الكيل و نكتال من الطعام بقدر عددنا ، وقرأ حمزة والكسائي (يكتل) بالياء يعنون أخاهم بنيامين أي يكتل لنفسه كما يكتال كل منا لنفسه فان الكيل لنا مشروط بارساله ورؤية العزيز له ، تقول كلت له الطعام إذا أعطيته واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك يقال كال الدافع ، واكتال الآخذ ، قاله في المصباح ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ في ذهابه وإيابه فلا يناله مكروه نخافه ، كأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لا يزال يعتقد أنهم يحسدونه كما كانوا يحسدون يوسف معه فقالوا له مثل ماقالوا لما طلبوا إرسال يوسف معهم يرتع ويلعب ، فماذا قال هو لهم ؟

٦٤ ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ إذ قلتم (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) ثم خنتم وكذبتم فأضعتم يوسف فالحالة واحدة ووعدكم بحفظه لا يوثق به « ما أشبه الليلة بالبارحة » ﴿ فالله خير حافظا ﴾ فمن لم يحفظه فلا حافظ له ، قرأ الجمهور (حفظا) على التمييز وحمزة والكسائي (حافظا) وهو يحتمل التمييز والحال ، والكلمة كتبت في المصحف الامام بدون الف ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ولا يجمع علي الابتلاء بفقده وفقد أخيه يوسف معاً فرحمته أوسع وأعظم ، وفي قوله هذا لين وميل الى ارساله لشدة الحاجة ولكنه غير صريح

(٦٥) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ؟ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٦) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ

٦٥ ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم ﴾ أي فتحوا رحالهم من غرائر وغيرها وجدوا فيها ما كانوا أعطوه من بضاعة ونقد ثمناً للطعام كما توقع يوسف اذ أمر فتيانه بوضعها في رحالهم ولم يعلموا بذلك من قبل ﴿ قالوا يا أبانا ما نبغي؟ ﴾ استفهام في سياق استئناف بياني ، يعنون أي إكرام نطلب وراء هذا الذي فعل معنا عزيز مصر ، أو نفي للمبالغة فيما حدثوه به من كرمه وحسن ضيافته ، أي ما نبغي ولا نسرف فيما حدثناك عن كرم هذا الرجل ، ثم استدلوا على هذا بقولهم مستأنفاً أيضاً ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ بعينها على حقارتها لم يأخذ العزيز شيئاً منها ، وكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته فهو هبة منه لنا أو صدقة علينا ﴿ ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ﴾ هذا عطف على محذوف تدل عليه القرينة ، أي فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه من الميرة من مصر مجاناً ونحفظ أخانا بعنايتنا كلنا به مع عدم المخاوف التي تخشى ان تغلبنا عليه ﴿ ونزداد كيل بعير ﴾ أي حمل جمل يكال لأخينا ويفهم منه ان يوسف ما كان يعطي أحداً أكثر من حمل بعير حتى لا يسرف الناس في الطعام ، وقد أشار في تعبير رؤيا الملك إلى ما يجب من الاقتصاد ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي ان حمل البعير كيل سهل لا عسر فيه على عزيز مصر الجواد المحسن ، او قليل لا يكثر على سخائه ولا يشق عليه وإن كان يعلم ان كل ما نأخذه لبيت واحد ، فالمشار إليه حمل البعير ، والكيل بمعنى المكيل ، واليسير له معنيان أحدهما السهل وهو ضد العسير ومنه قوله تعالى (يوم عسير على الكافرين غير يسير) وقوله (وكان ذلك على الله يسيراً) والثاني القليل من كل شيء حتى الزمن ومنه قوله تعالى (وما تلبثوا بها إلا يسيراً) وقال الزمخشري وتبعه البيضاوي : أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا ، يعنون ما يكال لهم فأرادوا أن يزدادوا اليه ما يكال لأخيهم ، أو يكون ذلك اشارة إلى (كيل بعير) أي ذلك الكيل شيء قليل يجيبنا اليه الملك ولا يضايقنا فيه ، أو سهل عليه متيسر لا يتعاظمه ، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب وان حمل بعير واحد شيء يسير لا يخاطر لمثله

بالولد اه وهذا بعيد ولو كان من قوله لعطف عليه ما بعده ولكنه جاء مفصولا مستأنفا على الاصل في جواب سؤال مقدر كامثاله وهو :

٦٦ ﴿ قال ان أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله ﴾ أي حتى تعطوني عهداً موثقا بالقسم بالله ﴿ لتأتنني به ﴾ جواب القسم أي لترجعن به إلي على كل حال تعرض لكم ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا في حال واحدة وهي أن تغلبوا على أمركم بعدو أو بلاء يحيط بكم فتهلكوا دونه فلا تستطيعوا الاتيان به مجتمعين ولا متفرقين أو لا يسلم منكم أحد ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أي أعطوه العهد الموثق الذي اشترطه عليهم ﴿ قال الله على مانقول وكيل ﴾ أشهد الله تعالى على ما قاله واشترطه وما أجابوه به، يعني أنه سبحانه رقيب عليه وعليهم ، وأمرهم موكول اليه فهو الكفيل الذي يوفق للوفاء بالعهد ، والصدق بالوعد ، فمقول القول خبر في اللفظ إنشاء في المعنى

(٦٧) وَقَالَ يَـٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٨) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

٦٧ ﴿ وقال يابني لا تدخلوا ﴾ مصر مجتمعين ﴿ من باب واحد ﴾ كهيئتكم هذه بناء على أنه كان لمصر عدة أبواب لكبرها وكثرة طرقها ، وقيل انه أراد بالابواب الطرق، والراجح عندي أنه أراد الابواب التي يدخل الناس منها على

العزيز في قصره أو الوسائل الموصلة اليه ، فالابواب تطلق على المداخل الحسية والمعنوية ومنه (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) ومنه ابواب جهنم وهي امهات أجناس الاباطيل والمعاصي التي هي سبب دخولها ، وكذا أبواب العلم والكتب ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ بحيث لا يراكم من هنالك مجتمعين فيحسدكم الحاسدون ، ويكيد لكم الظانون ظن السوء ، فاذا وقع بكم مكروه بحسدهم وكيدهم أو بسبب آخر خشيت أن يصيبكم كلكم فيحاط بكم ﴿ وما أغني عنكم ﴾ وما أدفع عنكم بوصيتي هذه ﴿ من الله ﴾ أي مما قضاه الله وقدره في علمه وسنن خلقه ﴿ من شيء ﴾ قل أو كثر ، فما قضاه وحكم به لا بد من وقوعه ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي ما الحكم في تدبير العالم ونظام الاسباب والمسببات إلا لله وحده ﴿ عليه توكلت ﴾ دون غيره ودون علمي ووصيتي ، وحولي وقوتي ﴿ وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ كلهم لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم ، بل يجب على كل عاقل يؤمن به أن يتخذ لكل أمر ما يقدر عليه من الاسباب ، وأن يوصي بها بعضهم بعضاً ، وأن يكون اتكالهم في النجاح وقضاء الحاج عليه ، فان من الاسباب ما يخفى عليهم ، ومالا تصل اليه أيديهم

٦٨ ﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ وهو الابواب المتفرقة ﴿ ما كان يغني ﴾ يمنع أو يدفع دخولهم أو أمره لهم وامتثالهم له ﴿ من الله من شيء ﴾ أي أدنى شيء من المكروه الذي من شأنه أن يحول دون رجوعهم ببنيامين ، وقد أخذ عليهم الموثق بان يأتوه به إلا اذا أحيط بهم فلم يبق منهم أحد ، وانما يقع هذا في العادة الغالبة اذا كانوا مجتمعين ﴿ إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴾ هذا استثناء منقطع بالاتفاق والمعنى أن يعقوب كان يعلم أن الحذر لا يدفع القدر ، ولكن كانت هنالك حاجة تعتلج في نفسه ، قضت الحكمة الا يكاشف بها أحدا منهم ، هي وراء ما يخطر بالبال من أسباب الاحتياط لسلامة بنيامين والعودة

به قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها ﴿ وإنه لذو علم ﴾ خاص به وبأمثاله الأنبياء ﴿ لما علمناه ﴾ لأجل ما أعطيناه من علم الوحي وتأويل الرؤيا الصادقة والالهام وذلك عندهم فوق صحة الفكر وسلامة العقل ، فهو يعلم به أن يوسف حي سيكون له شأن ، وأن الانسان يجب عليه في كل أمر يحاوله أن يتخذ له كل مايصل اليه علمه من أسبابه حتى ما كان منها احتياطيا ثم يتوكل على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ما تختص به رسلنا من علمنا اللدني ، فهم يتكلون على ما يظنون أو يتوهمون من الاسباب ، والواجب الجمع بين الاسباب الصحيحة وبين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام

هذا ما يدل عليه ظاهر الآيتين من تفسيرهما الظاهر المتبادر من لفظهما ، ولتلك الحاجة التي كانت في نفس يعقوب تفسير باطن لا يفهمه إلا من عرضها على أول القصة وآخرها ، وهو ما فهم يعقوب من رؤيا يوسف عليهما السلام من أن ربه يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به ، وما جزم به من تكذيب إخوته في قولهم أكله الذئب ، فقد كان يعلم أن يوسف حي باق وينتظر تحقيق رؤياه له ولآل يعقوب، وقد قلنا إن علم يعقوب بهذا كان علما قطعيا ولكنه مجمل مبهم لا يتناول مكانه بعد أخذ السيارة له ولا ما فعل الله به ، فلما قص عليه أولاده ما كان من ضيافتهم وإكرامهم في قصر ملك مصر ووزيره العزيز المفوض، ومطالبته إياهم بأن يأتوه بأخ لهم من أبيهم ، وأكد هذا الطلب وألح فيه وأنذرهم الحرمان من الكيل لهم إن لم يأتوه به ، ترجح عنده أن هذا العزيز العطوف الرؤف المحسن المضيف لأولاده دون الوفود التي تفد عليه من مصر وغيرها لطلب الرزق هو يوسف بعينه ، ولم يكن له أن يجزم بذلك عقلا ، ولم يخبره الله به وحيا ، لأن كل شيء عنده تعالى بقدر، ولكل قدر أجل ، فلقن يعقوب أبناءه وصيته رجاء أن تنكشف بها الحقيقة أو تزداد قوة إلى أن يكشفها الله تعالى الكشف الاخير بتأويل رؤيا يوسف التام

قال يا بني لا تدخلوا على هذا الملك الكريم أو الوزير العزيز من باب واحد من أبواب الوصول اليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، وأراد بذلك أن يروا بأعينهم ما يكون من تأثير كل طائفة منهم في نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركة عينيه ولمعانهما عند رؤية شقيقه فيمن يدخل معهم، إذ لا يعلم هذا اذا دخلوا عليه كلهم كوكبة واحدة ، وقد ابهم أمر الوصية عليهم ولم يشر إلى سببها ، وانتظر أن يخبروه بما سيقع لهم بعد وقوعه

ويؤيد هذا قوله تعالى بعدما تقدم (فلما دخلوا على يوسف) فعلم منه أن المراد من الدخول الاول دخولهم عليه لا على مصر ، ثم يؤكده أنه لم يصدقهم في قولهم (إن ابنك سرق) وقال لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) ثم قوله (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) ثم قوله (إني لأجد ريح يوسف) الخ ثم انكشاف الامر كله بما تمت به القصة

هذا ما تبادر إلى فهمي أنه الحق الموافق للسياق والجمع بين أول القصة وآخرها وفهمها بنظر العقل المستقل في الحكم ، بعد أن توجهت إلى الله أن يلهمني الصواب في تلك الحاجة في نفس يعقوب، كما أتوجه اليه وأدعوه دائما في الاسحار وفي غيرها أن يوفقني في تفسير كتابه لما يحبه ويرضاه من الحق ونفع الخلق

والمشهور عند الخواص والعوام من حاجة يعقوب التي كانت في نفسه أنه كان يخاف على أولاده إصابة العين وهو أول ما قرأته في تفسير الجلالين ثم رأيته في الدر المنثور مرويا عن أشهر علماء التفسير المأثور من الصحابة والتابعين كابن عباس ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد وقتادة والضحاك. ولكن روي عن ابراهيم النخعي في ذلك أن يعقوب أحب أن يلقى يوسف أخاه في خلوة. وهذا الذي قارب الصواب ولم يقرطس في هدفه فزعم أنه كان يعتقد أن يوسف ملك مصر ، ولو صح هذا لما قال بعده (يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن)

فاما الخوف من العين ففيه أنه مخالف للسياق القريب الدال على الحرص على سلامة بنيامين والاحتياط للاتيان به ، فان الخوف عليهم من العين اذا دخلوا من باب واحد يعنى به الجماعة دون الافراد ، ولا يظهر فيه شيء يخص بنيامين ، وهم

قد دخلوا مصر أول مرة من باب واحد فلم تصبهم العين، ولو صح ما في سفر التكوين من اتهام يوسف إياهم بالتجسس لجاز أن يقال إن رؤيتهم مجتمعين هو الذي أوقع الشبهة عليهم ، وهم إنما اجتمعوا عند يوسف لا في باب من أبواب مصر ،

وحوادث الاصابة بالعين عند المصدقين لها قليلة واكثرها وهمية ولم يرو عنهم أنها بلغت أن يقتل بها جماعة من الناس اشداء كاخوة يوسف، وهم فريقان أحدهما يرى أنها تقع من تأثير بعض الانفس الشريرة الحسود فيما تتوجه اليه توجها قويا ، والآخر يسلكها في خوارق العادات أو الحوادث المجهولة السحرية، والمؤمن بالله من كل منهما لا يقيم لتأثيرها وزنا ، بل منهم من يقاوم تأثيرها بعد وقوعه بالتوجه الى الله والدعاء والرقية ، فان تأثير الايمان والتوجه الى الله تعالى ودعائه وذكره والرقية بما يعتقد تأثيره قد يكون أقوى من تأثير النفس الشريرة ومنها العين كما بيناه في موضعه، ونظرية التأثير النفسي ومنه التنويم المغناطيسي مبنية على تأثير القوي من الانفس في الضعيف ، ولقد رأيت في استانبول رجلا نوم امرأة تنويما مغناطيسيا فقلت له ان استطعت أن تنومني فلك حكمك في أو ما شئت من الدراهم ، فاعترف بعجزه ، وعلله بأن نفسي أقوى من نفسه

وقد صح في وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب في الحديث الصحيح أنهم « الذين لا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون » فالرقية تنافي التوكل لانها سبب وهمي ضعيف، ولكن الاخذ بالاسباب القوية المطردة الثابتة بالتجارب المنتظمة في سنن الله تعالى لا ينافي التوكل ، بل تركها هو الذي ينافي التوكل كما قررناه في موضعه من هذا التفسير وغيره وقد صرح يعقوب عليه السلام في هذا المقام بتوكله على الله وحده ، وهو دليل على أن ما قصده بتوصيته لأولاده لا ينافي التوكل ومنه الخوف من العين ، وفي الصحيحين وغيرهما ان « العين حق » والاذن أو الامر بالاسترقاء من العين، وسنحقق المسألة في خلاصة تفسير السورة إن شاء الله تعالى

---

(٦٩) وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧٠) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ

جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧١) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ؟ (٧٢) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٣) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٤) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ؟ (٧٥) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٦) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

---

٦٩ ﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ في مجلسه الخاص به بعد دخولهم البلد أو باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ﴿آوى اليه أخاه﴾ أي ضم اليه أخاه الشقيق وهو بنيامين من دونهم، وهذا ما كان يتوقع يعقوب أو أكثر مما كان يتوقع من حدب عليه يظهر أثره في وجهه أو عناية يختصه بها ﴿قال إني أنا أخوك﴾ يوسف الذي فقدتموه في صغره. وقيل إنه لم يصرح له بأنه أخوه الشقيق وإنما قال هذا من باب التجوز والتشبيه، ويرد هذا تأكيد الجملة الخبرية الاسمية بإن وبتأكيد ضمير المتكلم، ويدل على الحقيقة قوله ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أي فلا يرهقنك بعد الآن بؤس أي مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يفعلون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لي ولك. فالابتئاس افتعال واهتمام بالاسباب التي تجلب البؤس والشقاء

وفي سفر التكوين أن أباهم أرسل معهم هدية إلى الرجل فوق الفضة التي يشترون بها القمح والفضة التي كانت ردت اليهم لاحتمال أن تكون ردت سهواً وقال لهم « ٤٢: ١٣ وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا الى الرجل ١٤ والله القدير

يعطيكم رحمته أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر (١) وبنيامين وأنا إذا عدمت الاولاد عدمتهم ١٥ فأخذ الرجال هذه الهدية وأخذوا ضعف الفضة في أياديهم (كذا) وبنيامين وقاموا ونزلوا الى مصر ووقفوا أمام يوسف ١٦ فلما رأى يوسف بنيامين معهم قال للذي على بيته أدخل الرجال إلى البيت واذبح ذبيحة وهيء (طعاما) لان الرجال يأكلون معي عند الظهر ففعل الرجل كما قال يوسف» وفيه انهم لما أدخلوا إلى بيت يوسف خافوا أن يوقع بهم ويأخذ عبيدهم وحميرهم فقصوا على الرجل قصتهم ومنها ما وجدوه في رحالهم من الفضة المعادة اليهم فطمأنهم وأخرج اليهم أخاهم شمعون وأكرمهم إلى أن جاء يوسف وقت الظهر ليأكل معهم ، فلما جاء قدموا له الهدية وسجدوا له إلى الارض وسألهم عن سلامتهم وسلامة أبيهم أحي هو ؟ (٢٨ فقالوا عبدك أبونا سالم هو حي بعد وخروا وسجدوا ٢٩ ورفع عينيه ونظر بنيامين أخاه ابن أمه وقال: أهذا أخوكم الصغير الذي قلتم لي عنه ؟ ثم قال الله ينعم عليك يا ابني ٣٠ واستعجل يوسف لأن أحشاءه حنت إلى أخيه وطلب مكانا ليبكي ، فدخل المخدع وبكى هناك ٣١ ثم غسل وجهه وخرج وتجلد . وقال قدموا طعاما ٣٢ فقدموا له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ، لان المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاما مع العبرانيين ، لانه رجس عند المصريين ٣٣ فجلسوا قدامه البكر بحسب بكوريته والصغير بحسب صغره فبهت الرجال بعضهم الى بعض ٣٤ ورفع حصصا من قدامه اليهم فكانت حصة بنيامين أكثر من حصص جميعهم خمسة أضعاف» وهذه الرواية ذكرها الزمخشري بما هو ألطف مما في سفر التكوين ولم يذكر المصريين بل ذكر انه أجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه ، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا (أي حجرة) وهذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك؟

(١) يعني بأخيهم الآخر شمعون إذ كان على روايته قد أمسكه عنده رهنا ليأتوا ببنيامين

ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وقال له (إني أنا أخوك) الخ وهذا قريب من العقل والفطرة ، وفيه من عواطف الرحم وإيثار الاخ الشقيق على غيره ماسنتكلم عنه في الخلاصة الاجمالية إن شاء الله تعالى

---

٧٠ ﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ تقدم مثله قريبا ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾ السقاية بالكسر : المكان الذي يسقى فيه الناس، وولاية سقيهم حيث تكون حرفة أو مصلحة كما يقال في عرف هذا العصر) ومنه سقاية الحاج المعروفة قبل الاسلام وبعده الى أن كثر الماء بمكة وكثر الحجاج . قالوا : وتطلق على إناء أو وعاء يسقى به وهو الذي عبر عنه في الآية ٧٢ بصواع الملك ، وهو كالصاع مكيال معلوم يكال به الحب وغيره ، ويلوح لي انه يسمى سقاية إذا كيل به الشراب الذي يوزع على المستقين كالحجاج إذ كانوا يسقون نبيذ التمر (أي نقيعه) فيكفى عدة منهم، لا انه ما يكفي الواحد كالكأس والكوب ، وقد أطلقه المفسرون على المكيال الذي يسمى المكوك (مذكر) وهو ثلاث كيلجات ، والكيلجة بكسر الكاف وفتح اللام : كيل معروف لأهل العراق وهي منا وسبعة أثمان منا ، والمنا رطلان اه من المصباح . وفي الافصاح ان المكوك نصف الويبة وهي اثنان وعشرون مدا بمد النبي ﷺ أو ثلاث كيلجات ، والمد مكيل وهو رطلان أو رطل وثلث وهو أيضا ربع الصاع اه فالمكوك على هذا كيلة مصرية ، فالسقاية والصواع إذاً كيل من ١٢ من الاردب المصري المعروف الآن ، والظاهر أن إضافته إلى الملك يراد به أنه المكيال الرسمي الذي صدر به أمره ، لا كما يفهم من أكثر التفاسير انه كان كأسا من الذهب أو الفضة لشربه ، فما المناسبة بين كأس الشراب ، ومكيال بيع الطعام؟ وفي سفر التكوين انه طاس ليوسف من الفضة كان يشرب فيه ولو لم يسم إلا بالسقاية لصح أن يوافق هذا المعنى. والصاع يصح أن يشرب منه لا به

وأما رواة التفسير المأثور فأخرجوا عن ابن عباس في السقاية قال : هو الصواع وكل شيء يشرب منه فهو صواع ، وفي رواية أخرى عنه في صواع الملك قال شيء يشبه المكوك من فضة كانوا يشربون فيه ، وفي رواية ان نافع بن الازرق قال له اخبرني عن قوله [صواع الملك] قال الصواع الكأس الذي يشرب فيه . قال وهل

تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت الاعشى وهو يقول :

له درمك في رأسه ومشارب وقدر وطباخ وصاع وديسق

وفي رواية عنه : صواع الملك كان من نحاس ، وعن عكرمة كان من ذهب على ما يذكرون ، وفي رواية أخرى عنه كان من فضة ، وعن سعيد بن جبير في صواع الملك هو المكوك الذي يلتقي طرفاه كانت تشرب فيه الاعاجم الخ وفي رواية أنه كان فضة مموهة بالذهب . وهذه الروايات لا يمكن أن تكون مأخوذة من اللغة كما علمت وإن ذكرت أقوالهم في بعض كتبها ، وبيت الاعشى لا يدل على أن الصواع الكأس الذي يشرب الناس به ، وروي عن بعضهم أنهم كانوا يسقون به الحمير وهو أقرب ، ولا من التاريخ إلا ما ذكرناه من عبارة سفر التكوين زادوا عليها ما زادوا مما لا دليل عليه . وليس فيها حديث مرفوع صحيح ولا ضعيف ، فهي إذاً من الاسرائيليات التي لا قيمة لها

﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ أي نادى مناد وقف بينهم ليسمعوا كلهم من التأذين وهو تكرار الاذان وكثرته ، ومعناه الاعلام بالشيء الذي تدركه الاذن ، يقال آذنه بالشيء إيذانا : أي أعلمه به ، وأذن الناس بكذا أي أعلمهم المرة به بعد المرة ومنه

المؤذن بالصلاة ﴿ أيتها العير انكم لسارقون ﴾ العير بالكسر الابل التي عليها الاحمال لانها تعير أي تجيء وتذهب ، وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير بالفتح (كبيت) وهو الحمار ، وفي سفر التكوين ان قافلتهم كانت من الحمير — أي نادى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا انكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم ، والظاهر من السياق أن يوسف (ع.م) وضع السقاية في رحل أخيه بيده ولم يكله الى أحد من فتيانه كتجهيزهم الاول والثاني لئلا يطلعوا على مكيدته ، وكان من شأنهم أن افتقدوا السقاية لانها الصواع الذي يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أي كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود في كل زمان ومكان ، وليس في العبارة ولا في السياق ما يدل على أنه قال هذا بأمر يوسف حتى يقال كيف أمره بالكذب ويحتاج الى تأويله له كما تكلفه بعض المفسرين . وسرق من باب ضرب والمصدر السرق بالتحريك والاسم السرق والسرقة بكسر الراء

٧١ ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ﴾ أي قال اخوة يوسف لجماعة المؤذن (المنادي) وقد تركوا رحالهم وأقبلوا عليهم ﴿ ماذا تفقدون؟ ﴾ من فقد الشيء الموجود أي غاب عنه وعدمه فلم يجده حيث يعهده ، وتفقده تعهده وفتش عنه حيث يعهده

٧٢ ﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي نفقد الصاع الرسمي الذي عليه شارة الملك ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ أي وسق جمل من الطعام وهو القمح وهذا يدل على أن عيرهم كانت الابل لا الحمير إلا أن يقال إن الاحمال كانت تقدر بما يحمله البعير وان حملت على غيره ﴿ وأنا به زعيم ﴾ يقول المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير أجعله حلوانا للذي يجيء به ، يعني ان كان مفقوداً غير مسروق أو جاء به غير سارقه

٧٣ ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ﴾ القسم بالتاء خاص باسم الجلالة وسمع : ترب الكعبة ، أي لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا في امتيارنا الاول وفي عودتنا وإعادتنا لبضاعتنا التي ردت الينا مع غيرها لما نبغيه من الميرة الثانية اننا ﴿ ماجئنا لنفسد في الارض ﴾ أي في أرض مصر بسرقة ولا غيرها من الاعتداء على الحقوق ﴿ وما كنا سارقين ﴾ أي وما كان من شأننا ولا مما يباح في ديننا وأدبنا أن نسرق ، فهذا من نفي الشأن وهو أبلغ من نفي الفعل كما بيناه مراراً

٧٤ ﴿ قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ﴾ أي قال فتيان يوسف لهم فما جزاء الصواع على سارقه أو ما جزاء سارقه ان كنتم كاذبين في جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

٧٥ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله ﴾ أي جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبداً لصاحبه ﴿ فهو جزاؤه ﴾ تقرير للحكم وتأكيد له في شرع يعقوب وآله وهو أن يسترق السارق سنة ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم في شرعنا، فنحن أشد الناس عقابا لهم، وهذا زيادة في تأكيد قولهم لثقتهم ببراءة أنفسهم ، ولا يجوز أن نجعل هذه الجملة من كلام فتيان يوسف كما قيل

٧٦ ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ أي فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التي تشتمل عليها رحالهم ابتعاداً عن الشبهة وظن التهمة بالحيلة ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ أي ثم انه بعد الفراغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج منه السقاية ، وقيل يصح عود الضمير المؤنث الى الصواع لانه يذكر ويؤنث كما قال الزجاج ، ولكن لا يناسب تأنيث ضميره بعد تذكيره في قوله (ولمن جاء به حمل بعير) .

ومن دقائق القرآن التي يعز استخراجها على غير مهرة الغواصين على اللآلىء قوله تعالى (استخرجها) بدلا من أخرجها ، فان الاستفعال في أصل اللغة طلب الفعل لا إيجاده ، والطلب يكون بالقول ويكون بالفعل ، ونكتة البلاغة فيه هنا ان يوسف فعل الاسباب التي انتهت الى خروج السقاية من وعاء أخيه سواء فعل ذلك بيده أو بأمره لغلمانه وأتباعه ، فهذا ابتغاء وطلب لها بفعل أسبابها ومقدماتها ، ومن أخرج الشيء من الشيء ابتداء بغير تكلف أسباب ولا مقدمات لا يصح أن يقال استخرجه : يقال أخرج يدك من جيبك ولا يصح أن يقال استخرجها ، وقالوا استخرجت الشيء من المعدن بمعنى خلصته من ترابه ، فصيغة الاستفعال هنا على أصلها كالتي في الآية ، ومنه المستخرجات عند المحدثين فتأمله

﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ مثل هذا الكيد الخفي – وهو التدبير الذى يخفى ظاهره على ناظريه والمتعاملين به حتى يؤدى الى باطنه المراد منه – كدنا ليوسف أى ألهمناه إياه وأوحينا اليه أن يفعله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ هذا استئناف لبيان علة الكيد له معناه أنه ما كان من شأنه ولا مما تبيحه له امانته لملك مصر أن يخالف دينه أي شرعه الذى يدين الله تعالى به في أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرجوع معهم وهو ملتزم له بتفويضه الحكم في بلاده به ، فأخذه بغير جرم يبيحه له ظلم واستبداد ، وللسرقة عقاب دون أخذ السارق واسترقاقه ،

بيان هذا الكيد الالهي انه لما كان استبقاء بنيامين عند يوسف مصلحة اقتضتها الحكمة الربانية في تربية إخوته وعقابهم بما فرطوا في يوسف وتمحيصهم وتصفيتهم

واصطفاء أبيهم أيضا واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بصفة غير استبدادية وغير ماتقتضيه شريعة الملك ، وما هو إلا أن يكون بحكم اختياري من إخوته على أنفسهم بمقتضى شريعتهم ، يذوقون به ألمه ومرارته فيما لا لوم به على أحد غير أنفسهم ، ولا سبيل إلى هذا الحكم منهم إلا وقوع شبهة السرق على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته .

ولما كانت هذه الوسيلة الوحيدة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة الظاهر لأنها تهمة باطلة وكان من شأن يوسف أن يتأثم بها ويتحاماها إلا بوحي من الله تعالى بين تعالى أنه فعل ذلك بمشيئته وإذنه فقال ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فهو نص صريح في أنه فعل ذلك باذن الله تعالى ووحيه لا أنه هو الذي اخترع هذه المكيدة ، واحتال بها لمخالفة الشريعة ، كما يزعمه علماء السوء أصحاب الحيل التي يخترعونها لاتباع أهوائهم والخروج عن حكمة ربهم وحكمه معا ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ في العلم والايمان كما رفعنا درجة يوسف ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ أوسع إحاطة وأرفع درجة منه في العلم المطلق إما علمه وإما غير علمه الذي تفوق فيه كما تدل عليه قصة موسى مع الخضر ، فلا يوجد أحد من علماء الخلق يحيط علما بكل شيء فيكون فوقهم كلهم ولا يكون فوقه أحد ، وإنما الذي أحاط بكل شيء علما وهو فوق كل ذي علم على الاطلاق فهو الله رب العالمين عز وجل الذي أحاط بكل شيء علما

---

(٧٧) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٨) قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٩) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ

ماذا قال اخوة يوسف العشرة عندما رأوا السقاية قد استخرجت من وعاء بنيامين؟

٧٧ ﴿ قالوا إن يسرق ﴾ هذا من دوننا وما كانت السرقة من شأننا ودأبنا ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يعنون يوسف عليه السلام وان العلة فيه وفي أخيه واحدة وهي أمهما، كأنهما ورثا هذه الجريمة منها، إذ لا ينفردان دونهم إلا بها، وهذه التهمة دليل على أن حسدهم لهما لا يزال كامنا في قلوبهم وأن علته الاولى اختلاف الامهات، وزيادة عطف الاب عليهما كما قلنا في تفسير أول السورة. ويجوز أن تكون هذه التهمة كاذبة كقولهم (أكله الذئب) وأن يكون لها شبهة كشبهة سرق بنيامين

اختلف المفسرون في هذا وذاك ورووا فيه روايات لا يعرف لها أصل إلا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال «سرق يوسف (ع.م) صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فعيره بذلك اخوته» وعن سعيد ابن جبير وقتادة مثله غير مرفوع ولم يخرج المرفوع أحد من رواة التفسير المأثور غير ابن مردويه ولم يعتمده منهم أحد بل عبر بعضهم عنه بقيل. وقيل كان الصنم لخاله يعبده فأمرته أمه بسرقته وكانت مسلمة، وقيل سرقه من كنيسة وقيل سرق مكحلة لخالته، وقيل بيضة وقيل دجاجة، وقيل أخذ شيئا من الطعام عن المائدة فتصدق به. وكل هذه روايات إسرائيلية سخيفة كان زنادقة اليهود يضحكون بها على المسلمين وأبلقها وأليقها بالمقام ما أخرجه ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد وهو: قال كان أول ما دخل على يوسف (ع.م) من البلاء فيما بلغني أن عمته وكانت أكبر ولد اسحاق عليه السلام وكانت اليها منطقة اسحاق فكانوا يتوارثونها بالكبر وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها واليها فلم يحب احد شيئا من الاشياء كحبها إياه حتى اذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أخية(١) سلمي إلي يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أياما أنظر اليه لعل ذلك يسليني عنه، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت الى منطقة اسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم قالت فقدت منطقة اسحاق فانظروا من أخذها ومن

(١) تصغير اخت للتحبب

أصابها، فالتمست ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام فقالت والله انه لسلم لي أصنع فيه ماشئت، فأتاها يعقوب عليه السلام فأخبرته الخبر فقال لها: أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت عليها السلام، فهو الذي يقول اخوة يوسف عليهم السلام حين صنع بأخيه ما صنع (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) والروايات لا يوثق بها ولا يدل شيء منها على سرقة حقيقية

﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ أي فكتم هذه القولة أو الكلمة التي سمعها يوسف منهم في نفسه ﴿ ولم يبدها لهم ﴾ أي لم يؤاخذهم بها قولا ولا عملا لانه بلغ منهم كل ما أراد من حيث لم يتعرف اليهم ولكنه ﴿ قال أنتم شر مكانا ﴾ أنتم شر في مكانتكم ومنزلتكم مما تعرضون به أو تفترونه، يعني انكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده اليه وعرضتموه للهلاك والرق، وقلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ

﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ وهو أنكم كاذبون فهو يجازيكم عليه في الدنيا الآن. والظاهر انه قال هذا في نفسه فهو استئناف بياني، ورجح بعضهم أن هذه الجملة تفسير للضمير في (أسرها) على أنه مما يسميه النحاة الاضمار على شريطة التفسير الذي يجوزون به عود الضمير المتقدم على المتأخر عنه لفظا ورتبة وله شواهد ونازع فيه بعض أئمتهم بما لا محل له في تفسيرنا

٧٨ ﴿ قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيراً ﴾ بالغا غاية الكبر في الشيخوخة أو كبير القدر جديراً بالرعاية كما علمت مما قصصناه عليك من خبره وتعلقه به ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ بدله إذ استحققت أخذه فهو يحل محله عندك فيما تشاء من الخدمة التي تراد من الرقيق، من حيث ترحم هذا الشيخ الكبير فيما لا يضيرك ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ الذين لا يأبون إحسانا يقدرون عليه أو من المحسنين إلينا في ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا، وهذا الذي نرجوه منك الآن، هو غاية الاحسان

٧٩ ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ ﴾ اي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿ الا من

وجدنا متاعنا ﴿ وهو الصواع ﴿عنده﴾ وهو بنيامين، ولم يقل الامن سرق متاعنا اتقاء للكذب فانه يعلم انه ليس بسارق ، وقول المنادي «انكم لسارقون» مبني على الظاهر له من فقد الصواع فقد قال ما اعتقد ولم يكن يعلم المكيدة كما تقدم على أنه ليس كيوسف في تحرى الحق ﴿ إنا اذاً ﴾ أي اذا أخذنا غيره ﴿ لظالمون ﴾ بمخالفة حكم شرعكم ونص فتواكم من إحدى الناحيتين ولشريعة الملك من الثانية

(٨٠) فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ، وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨١) ٱرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَٰٓأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ (٨٢) وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (٨٣) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٨٤) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ

٨٠ ﴿فلما استيأسوا منه﴾ أي استحكم اليأس في أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم لاقامته الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وكون فعله حينئذ يكون ظلما بحكم الشريعتين : شريعتهم وشريعة ملك مصر ، أو استيأسوا من بنيامين ان يعودمعهم الى ابيهم ، فالاستيئاس هنا اخص من اليأس الذي يقع ابتداء من غير

طلب لاسباب الرجاء التي تحول دونه فهو على اصل معنى الصيغة كما قلنا آنفا في كلمة (استخرجها) وعبروا عنه بالمبالغة في اليأس ﴿ خلصوا نجيا ﴾ انفصلوا من كل شيء كانوا فيه وانجمعوا دون يوسف واخيه وفتيانه لا يخالطهم أحد ولا شيء خالصين للمناجاة والمسارة في امرهم كانهم نجي واحد أو كأنهم نفس المناجاة، فالنجي يطلق بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى (وقربناه نجيا) وبمعنى المصدر أو اسمه اي التناجي والنجوى فيستوى فيه المفرد والمثنى والجمع فيقال هم نجي ونجوى ومنه قوله تعالى (وإذ هم نجوى)

وهذه الجملة في منتهى البلاغة وإعجاز الايجاز، يتمثل للعربي عند سماعها أولئك الاخوة العشرة وقد أعرض كبيرهم عن استعطاف العزيز، وغادر كل واحد رحله وما كان فيه، وانكمش بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهفوا آذانهم للنجوى ﴿ قال كبيرهم ﴾ في السن والرأي ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ﴾ أي عهداً مؤكداً بالقسم بالله لتأتنه ببنيامين إلا أن يحاط بكم فلا يبقى منكم أحد وما الوقت ببعيد فينسى ﴿ ومن قبل ما فرطتم في يوسف ﴾ التفريط في الشيء المبالغة في التقصير والاهمال له، وضده الافراط وهو المبالغة فوق الحاجة — أي ومن قبل هذا ماقصرتم في حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه، أو تفريطكم فيه، وما قاساه أبوكم من الحزن عليه ﴿ فلن أبرح الارض ﴾ أي فلن أفارق هذه الارض أو أرض مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ بتركها وبنيامين فيها والرجوع اليه ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ بأمر من عنده مما هو غيب في علمه كأن يترك العزيز لي أخي بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر، فالحكم هنا تكويني لا تكليفي وهو المعبر عنه بالقضاء والقدر ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لانه لا يحكم إلا بالحق وهو المقدر للاقدار، والمسخر للاسباب

٨١ ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق ﴾ صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالامر في مصر عملا بشريعتنا إذ اضطررنا إلى إنبائه بها بعد أن استفتانا . والاكتفاء بكلمة «سرق» من ايجاز القرآن في السكوت عن المعروف

بالقرينة أو غيرها من الدلائل كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) ﴿ وما شهدنا ﴾ عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة : ماشهدنا ﴿ إلا بما علمنا ﴾ إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه ، أو ماشهدنا للعزيز بأن السارق يسترق إلا بما علمنا من شرعنا علما قطعيا جرى به العمل ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ فنعلم انه يسرق — او فنعلم كيف وقع له هذا : هل هو حق او كيد كيد له ؟ ولو كنا نعلم الغيب لما آتيناك الموثق علينا

٨٢ ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ أي أهل القرية التي كنا نمتار فيها ، وهي مصر ، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم بحيث لو سئلوا لشهدوا ، أو اسأل زائريها ، قال الراغب : القرية اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس وللناس جميعا ويستعمل في كل واحد منهما ، ومنه قرية النمل ، ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي أصحابها ممن كانوا يمتارون معنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في شهادتنا سواء أسألت غيرنا أم لا . انتهى ما لقنهم اياه كبيرهم

٨٣ ﴿ قال بل سولت لكم انفسكم امراً ﴾ أي فرجع الاخوة التسعة الى أبيهم فقالوا له ما لقنهم كبيرهم فلم يصدقهم على تأكيدهم للخبر وانما قال لهم مامعناه ان الامر ليس كما تقولون بل سولت لكم انفسكم امراً كيدا آخر اي هيئته وزينته لكم فنفذتموه ، فان لم تكونوا تريدون بأخيكم سوءاً فلم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به ؟ ﴿ فصبر جميل ﴾ فالذي عليّ والمصيبة قد وقعت صبر جميل أتجمل به بين الناس وأشكو امري الى الله دونهم وأنوط الرجاء به وحده ﴿ عسى الله ان يأتيني بهم جميعا ﴾ يعني اولاده الثلاث : يوسف وبنيامين وكبيرهم الذى بقي مرابطا في مصر ﴿ إنه هو العليم الحكيم ﴾ الذي يحيط علما بحالي وحالهم وله فينا حكمة بالغة هي ولا بد بالغة أجلها ، وهذا يلاقي قوله ليوسف إذ قص عليه رؤياه (وكذلك يجتبيك ربك) الى قوله (ان ربك عليم حكيم) فتأمل وتدبر، وتذكر واعتبر

٨٤ ﴿ وتولى عنهم ﴾ أي أعرض عن اولاده قاطعا للكلام معهم كراهة له ﴿ وقال يا أسفا على يوسف ﴾ أي ياحزني وياحسرتي عليه، اقبلي فقد حقت كلمتك علي، قال الزمخشرى الاسف أشد الحزن والحسرة ، وقال الراغب : الاسف الحزن والغضب معا وقد يقال لكل منهما على الانفراد ، وذكر أن ابن عباس (رض) سئل عنهما فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف ، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظا وغضبا ، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزنا وجزعا اه مختصرا ومن استعماله في الغضب قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقال الزجاج: الاصل (يا أسفي) فأبدل من الياء ألفا لخفة الفتحة. والاسف شدة الجزع وقيل شدة الحزن ومناداة الاسف تعبير عن الشعور بأن الوقت وقته فهو قد وقع بحق فان الطبيعة مقتضية له فلا مناص منه لما تجدد من سبب اهتياجه اذ كان ينتظر ان يأتوه من مصر ببشرى لقاء يوسف كما علم مما قلناه في تفسير الحاجة التي كانت مطوية في سويداء قلبه إذ نصح لهم بالدخول من ابواب متفرقة ، فخاب امله وحل محله ذهاب ابنه المسلي عنه ، ولم يشركه معه بالاسف عليه لان مكان حب يوسف والرجاء فيه، قد ملأ سويداء القلب وزواياه ومحانيه، وانما محل غيره وراء شغافه وجداره الخارجي

﴿ وابيضت عيناه من الحزن ﴾ اي عميتا أو اصابتهما غشاوة بيضاء ذهبت ببصرهما موقتا مع بقاء عصبهما المدرك للمبصرات صحيحا ﴿ فهو كظيم ﴾ أي مملوء غيظا على أولاده قد كتمه في نفسه وفسروه بالمغموم وبالمكروب وبالكمد والمكمود ، وقال قتاده : كظم على الحزن فلم يقل الاخيرا ، وفي لفظ: يردد حزنه في جوفه ولم يتكلم بسوء ، وهو من كظم السقاء إذا شده بعد ملئه ، و كظم البعير إذا ترك الاجترار ، والكظم مخرج النفس ويقال لمن يكتم ما في نفسه ككتم نفسه كظيم ومكظوم ، والحزن عرض من أعراض النفس الطبيعية لا يذم شرعا إلا اذا بلغ بصاحبه الجزع أن يقول أو يفعل ما لا يرضي الله تعالى كما قال سيد الصابرين ﷺ عند موت ولده ابراهيم وقد جعلت عيناه تذرفان فقال له ابن عوف : وأنت يا رسول الله ! فقال « يا ابن عوف انها رحمة » ثم أتبعها باخرى « فقال ان

العين تدمع والقلب يخشع ولا نقول الا ما يرضي ربنا ، وانا بفراقك يا ابراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما

ولكن الأنفس العالية لا يبلغ منها الحزن غايته إلا اذا كان المحرك له أمر إلهي يليق بها كما يعلم من الآية الآتية في جواب يعقوب لأولاده على عذلهم له

وفي التفسير المأثور عن النبي ﷺ قال « إن داود عليه السلام قال يارب ان بني اسرائيل يسألونك بابراهيم وإسحاق ويعقوب فاجعلني لهم رابعاً . فأوحى الله اليه أن ياداود إن ابراهيم ألقي في النار بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وان اسحاق بذل مهجة دمه بسببي فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وان يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن وتلك بلية لم تنلك » وهذا حديث مرسل أخرجه ابن أبي حاتم من طريق علي بن زيد عن الحسن عن الاحنف بن قيس ، وعلي بن زيد بن جدعان هذا ضعيف له مناكير ضعفه الامام أحمد كما روى ذلك عنه أولاده : حنبل وعبد الله وصالح وغيرهم وقال الجوزجاني : واهي الحديث ضعيف وفيه ميل عن القصد . قالوا وكان رافضيا وقد اختلط في آخر عمره وقالوا انه كان يقلب الاحاديث ورفاعا أي يرفع إلى النبي ﷺ ما ليس بمرفوع . وقال الحافظ ابن كثير في هذا الحديث : وهذا مرسل وفيه نكارة فان الصحيح أن اسماعيل هو الذبيح ولكن علي بن زيد ابن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة والله أعلم . وأقرب ما في هذا أن الاحنف ابن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بني اسرائيل ككعب الاحبار ووهب ونحوهما والله أعلم فان بني اسرائيل ينقلون ان يعقوب كتب الى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه : إنا أهل بيت مصابون بالبلاء فابراهيم ابتلي بالنار واسحاق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لا يصح والله أعلم اه

---

(٨٥) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٦) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٧) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا

مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ

٨٥ ﴿ قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف ﴾ أي قسما بالله لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتلهج به لا تفتر ولا تنسى همه ﴿ حتى تكون حرضا ﴾ أي مشفيا على التلف ومشرفا على الهلاك من شدة الحزن والجزع ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ بالفعل فتموت كمدا. الاصل في فعل فتىء أن يستعمل منفيا كاخواته: «مازال ومابرح ومانفك» فيقال مافتىء ولا تفتؤ فحذف (لا) مع القسم لانه لا يلتبس بالاثبات لان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات كان على النفي. ومن الشواهد عليه قول امرىء القيس

فقلت يمينَ الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي إليك وأوصالي

والحرض مصدر حرض (كتعب) إذا أشرف على الهلاك من مرض أو حزن أو خوف فهو حرض بالتحريك يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع مذكرا ومؤنثا لأنه مصدر وقال الراغب: الحرض مالا يعتد به ولا خير فيه ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك. وفي الأساس: نهك فلان مرضا، حتى أصبح حرضا، وهو المشفي على الهلاك، ولا تأكل كذا فانه يُمرضك ويُحرضك اه

٨٦ ﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ أصل البث تفريق المجتمع وإثارة الكامن، وبث النفس إظهار ما انطوت عليه من الغم أو السر، أي لم تلوموني وأنا لم أشك اليكم ولا الى أحد من الخلق كمدي الذي ضاق صدري عن حبسه فبثثته، وحزني الذي أمضني كتمانه فأفشيته بهذه الكلمة (يا أسفي على يوسف)؟ إنما أشكو ذلك إلى الله وحده ﴿ وأعلم من الله ﴾ في ابتلائي بفراق يوسف وخفاء حاله علي وحسن عاقبته ﴿ مالا تعلمون ﴾ أعلم منه انه حي يرزق وان الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل

يعقوب وذريته به في الدنيا والآخرة ، وأرى البلاء يتناوشكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم بيوسف من قبل ، وبأخيه الذي كان يسليني عنه من بعد ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاسترُقّ ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاه فلا مردّ له ، وأنا أعلم ان له أجلا فيه هو بالغه ، كلا ،

هذا مايدل عليه حال يعقوب (ع . م) ثم راجعت الدر المنثور فرأيت في تفسير الآية روايات وعظية لا يصح منها شيء ولا يليق بنبي الله مبنية على عدم التفرقة بين الشكوى من الله والشكوى الى الله التي هي مناجاة واسترحام لله ، ومن أكذبها ماعزاه وهب بن منبه الى التوراة . وانما الفهم الصحيح منها مارواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (رض) في تفسير (وأعلم من الله ما لا تعلمون) يقول أعلم أن رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له

٨٧ ﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ أي اذهبوا إلى مصر فتكلفوا أن تدركوا بحواسكم من سمع وبصر شيئا من حال يوسف وأخيه حتى تكونوا على يقين من أمرهما ﴿ ولا تيأسوا من روح الله ﴾ أي فرجه وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، وترويحه بما ترتاح له الروح ويطمئن به القلب ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ بقدرته وسعة رحمته الذين لا يتجاوز علمهم بشئون أنفسهم وأحداث زمانهم دائرة ظنونهم واختبارهم الناقص الى ما لله عز وجل في عباده من حكم بالغة ولطف خفي ، فاذا تقطعت بهم الاسباب دون ما يبغونه من كشف ضر أو جلب خير ، بخعوا أنفسهم أسفا ، وانتحروا بأيديهم هما وحزنا ، فأنفع ما يمتاز به المؤمن على الكافر أن المصائب والشدائد لا تقنطه من رحمة ربه وتفريجه لكربه ، وان عظم عليه المصاب ، وتقطعت به الاسباب

ثم اعلم أن الروح (بالفتح) ماترتاح له الروح (بالضم) وهما من مادة الريح ، كما أن مرادفها وهو النفس (بالفتح) من مادة النفس (بالتحريك) وهو نسيم

الهواء الذي يتنفسه الانسان فيطهر دمه ويحفظ حياة نفسه الحيوانية، وما سميت اللطيفة الربانية المدركة العاقلة نفسا وروحا-وهي من عالم الغيب-إلا لان نسيم الهواء أقرب ما في عالم الشهادة اليها في لطافتها وما في معناها من معنى الحياة. قال الشاعر :

* وحل من نفسي محل النفس *

فروح الله لطفه الذي هو واسطة بين الحياتين الروحية والحيوانية بما فيه من تنفيس كرب النفس ، ويسمى الفرج بعد الضيق نفسا (بالتحريك) ومنه حديث « إني لأجد نفس الرحمن من ههنا » وأشار إلى اليمن وله تتمة رواه الطبراني عن سلمة بن نفيل، وحديث « لا تسبوا الريح فانها من روح الله تعالى » الخ رواه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة والنسائي والحاكم عن أبي

---

(٨٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٩) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٩٠) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩١) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩٢) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٣) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

﴿الفصل الرابع في الفرج القريب، وعطف الحبيب على الحبيب﴾

٨٨ ﴿فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضرّ﴾ أي أصابنا ضر المجاعة من هزال وضعف ، شكوا هذه المرة مالم يشكوا من قبل ليروا تأثير الشكوى فيه ، وغرضهم الاول التحسس لا الامتيار ، شعروا أن أباهم يرجح أنه هو يوسف فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطاف فيه ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ رديئة من شأنها أن يدفعها التجار ويردوها احتقاراً لها ، إذ لم يبق عندنا غيرها ، من أزجى الشيء وزجاه إذا دفعه برفق ، ومنه (ألم تر أن الله يزجي سحابا) وفي المصباح : وبضاعة مزجاة تدفع بها الايام لقلتها ، وأزجيت الامر أخرته ، وذكر بعض رواة المأثور نوع هذه البضاعة ولا مستند له، وهذه العودة بين مصر وفلسطين لم تذكر في سفر التكوين ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أكمله كما دادتك الحميدة ومقتضى إحسانك ﴿وتصدق علينا﴾ بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد إغماضك عن رداءتها ﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾ بإخلاف ماينفقونه والمضاعفة لهم بما هو خير منه، بالغوا في التذلل والاستماحة وإظهار الذل والحاجة لما ذكرنا آنفا من تحسس تأثير ذلك في معارف وجهه ، وجرس صوته ، ومغالبة دمعه ، واستشكل المفسرون طلب الصدقة وهي لاتحل للانبياء قياساً على خاتمهم عليه وعليهم السلام ، والقياس مع الفارق ، والجماعة لم يكونوا أنبياء، وما فعلوه معه كاف في الدلالة على بعدهم عن النبوة واختصاصه بها دونهم كما تقدم، ولقد كان تحسسهم في موضعه ، فماذا قال يوسف؟

٨٩ ﴿قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه؟﴾ أي هل علمتم الآن ما آن لكم أن تعلموه بالتجارب في هذه السن من عاقبة مافعلتم بيوسف من قبل وأخيه بنيامين من بعد ، وقد قرب العهد ﴿إذ أنتم جاهلون﴾ قبح فعلكم ، في نظر ربكم ، وحكم شرعكم ، وحقوق بر الوالد ، ورحمة الرحم ، أي في الحال التي كان يغلب عليكم الجهل بهذه الحقوق ، وبعاقبة البغي والعقوق ، ويجوز أن يكون مراده بالجهل مايقابل العقل والحلم ، لا ما يضاد العلم ، وهو الطيش والنزق واتباع الهوى

وطاعة الحسد والاثرة ، والمختار عندي الجمع بين المعنيين فكلاهما كان واقعا

قال يوسف هذا تمهيداً لتعريفهم بنفسه إذ آن أن يصارحهم به ، وقد بلغت الاقدار من تربيتها له ولهم غايتها، ولم يبق بعد هذا التمهيد إلا التصريح، وتأويل رؤياه التي كانت السبب الاول لكل هاتيك الافاعيل ، وقد كان هذا التمهيد عجبا في بلاغته ، وما يدل عليه من شعور يوسف الصديق النبي (ع.م) وخلقه ودينه وأدبه ، إذ فصل بهذا السؤال الوجيز الساذج في قضية يحار في الفصل فيها أوسع القضاة عدلا ورحمة ، ويعيا بالتعبير المرضي عنها أبلغ الادباء علما وحكمة ، وهي مقابلة طرفين تعمد أحدهما اقتراف جناية على الآخر طال عليها الامد عشرات السنين ، وكانت غايتها أن يقف الجاني بين يدي المجني عليه وهو يجهله موقف البائس الفقير ، المستجدي الحقير ، على ما نشأ عليه من عزة النفس ، وشرف الحسب والنسب ، واقتضت الحال أن يتعارفا وهما اخوان ، وأن يتناسيا ما كان ، فكيف يتقابلان ؟

المقام مقام خجل من الجاني وخسوف وكسوف، واسوداد وجوه، وتنكيس أبصار، واعتذار واستغفار ، يذيب الفؤاد ويخرس اللسان ، يقابله حلم وعفو وكرم من المجني عليه ، ربما كان الاعتزاز بها على الجاني لأول وهلة أقتل لعزة نفسه وإبائه من العتاب ومما هو أشد منه وهو التأنيب والتثريب، فكيف كان المخرج ليوسف عليه السلام ، من هذا المأزق الذي تحار فيه الافهام ، ويضطرب فيه الوجدان ، بما يكون خير أسوة لصلة الارحام ، ومحو الاساءة بالاحسان ؟

ذكر اخوته بذنوبهم قبل أن يتعرف اليهم ، تذكيراً مجملا مقرونا بذكر العذر الطبيعي دون الشرعي ، وهو الجهل بقبح الذنب في نفسه وبسوء عاقبته، وبالجهالة التي تزينه لفاعله، وتمكن لنزغ الشيطان من نفسه الامارة بالسوء ، بل بهما جميعا . ذكرهم هذا بسؤالهم سؤال العارف المتجاهل، باستفهام التقرير، لا التقريع والتوبيخ كما قيل، فانه يرده ما يأتي من نفي التثريب ، واستغفار العفو والصفح، وأما سهم أخيه من فعلتهم فهو ما اقتضاه إشراكهم إياه في حسدهم له من أول نشأته الدال عليه قولهم أولا (ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) وقول أبيهم آخراً (هل آمنكم

عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل؟) واتهامه اياهم بأنهم ما أفتوا عزيز مصر باسترقاقه بالسرقة إلا بما أضمروه له من حقد، وما سولته لهم أنفسهم من أمر، ولا يخفى على ذكي ولا بليد، كيف يعيش الفرد المحسود الضعيف، مع جماعة تحسده وتكيد له

هذا ما أفهمه من عرض القضية على ما نعلم من طباع البشر وسنة الله في الاجتماع ويقرب منه من إحدى النواحي ويبعد عنه من سائرها ما قاله الزمخشري مشيرا الى ترجيح قول جماعته (المعتزلة) على خصومهم (الاشعرية) في مسألة التقبيح والتحسين، وإنا نورده لبلاغة عبارته واتباع غيره له فيه ثم نشير إلى ما فيه وهو:

(قال هل علمتم) أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون؟) لا تعلمون قبحه فلذلك أقدمتم عليه، يعني هل علمتم قبحه فتبتم الى الله منه؟ لان علم القبح يدعو إلى الاستقباح والاستقباح يجر الى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم في الدين لا معاتبة وتثريبا، إيثاراً لحق الله على حق نفسه في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور، ويتشفى المغيظ المحنق، ويدرك ثأره الموتور، فلله أخلاق الانبياء ما أوطأها وأسجحها، ولله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها، وقيل لم يرد نفي العلم عنهم لانهم كانوا علماء ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل سماهم جاهلين، وقيل معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أوان الحلم والرزانة، روي أنهم لما قالوا (مسنا وأهلنا الضر) وتضرعوا اليه ارفضت عيناه ثم قال هذا القول. وقيل أدوا اليه كتاب يعقوب:

«من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله إلى عزيز مصر. أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فشدت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاما، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه، ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به

فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته لذلك، وإنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا ، فان رددته علي وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام » فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم ذلك. وروي أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب : اصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا اه قول الزمخشري وأقره ابن المنير وغيره عليه، بل اتبعوه فيه

أقول : أما ماقاله في تفسير سؤالهم عن العلم بأن نفى علمهم بقبحه وعلله بأنهم لو علموه لما فعلوه فهو تكلف مخالف لطباع البشر فانهم يفعلون القبيح وهم يعلمون قبحه طاعة للحسد والاثرة ، وترجيحاً للهوى على الهدى ، وأما الرواية التي ذكرها في كتاب يعقوب (ع.م) الى عزيز مصر فهي من الاسرائيليات الباطلة ، وأسلوبه اسلامي مصنوع ، ومن أغراض كعب الاحبار ووهب بن منبه المروي عنه فيه اقناع المسلمين بأن الذبيح إسحاق لا اسماعيل كما تقدم في تفسير الآية ٨٤ (ص ١٠٥) خلافا للمتواتر عند العرب الذي أقره الاسلام وجعلت الاضاحي وهي سنة ابراهيم في فداء ولده اسماعيل من مناسك الحج حيث فداه الله في منى من ضواحي مكة وطن اسماعيل ، فبث زنادقة اليهود في التفسير المأثور أن الذبيح اسحاق، وقد صار هذا مذهبا يؤخذ بالتقليد ويحرف لاجله تفسير القرآن ، فان القصة في سورة الصافات صريحة في أن الذبيح هو ولد ابراهيم الاول (اسماعيل) وأن الله قد بشره على احسانه فيها بولده الثاني (اسحاق) إذ قال في آخرها (٣٧ : ١٠٦ إن هذا لهو البلاء المبين ١٠٧ وفديناه بذبح عظيم ـ الى قوله ـ ١١٢ و بشرناه باسحاق نبيا من الصالحين)

---

٩٠ ﴿ قالوا أءنك لأنت يوسف ﴾ قرأه ابن كثير (إنك) بهمزة واحدة والجمهور بهمزتين ، كان سؤاله اياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه سؤال عارف بأمرهم معهما من أوله البعيد جداً الى آخره القريب جداً ، مصداقا لما أوحاه الله اليه حين ألقوه في غيابة الجب (وأوحينا اليه لتنبأنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) ودليلا راجحا على أنه هو يوسف إذ يبعد أن يعرف غيره هذا ، فأرادوا أن يتثبتوا منه بالعلم اليقين الذي يذهب بكل احتمال لما يعترضه من الشبهة بوجوده في هذا المنصب

السامي فوجهوا اليه الاستفهام بجملة اسمية مؤكدة بإن في اسمها وباللام في خبرها وبضمير الفصل بينهما ، يعنون: أمن المؤكد القطعي الذي لاريب فيه انك أنت يوسف ؟ ولولا هذا لكان يكفيهم أن يقولوا : أأنت يوسف ؟

ومن العجيب أن يتكلف المفسرون سببا لهذا السؤال ينتحلونه أو ينقلونه عمن يتقولون مثله من رواة الاسرائيليات كقول بعضهم إنه تبسم فعرفوه بثناياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم ، وما كان هذا المقام معهم بمقام تبسم ، وكان أولى منه بالتبسم يوم ضيافتهم ، ومجالس مؤاكلتهم ، وقول آخر إنه رفع التاج عن رأسه فنظروا الى علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء !! ونقول : من ذا الذي رأى هذا القرن فرواه باسناده المتصل في هذه القرون الطويلة ؟ ولم يسلم من الكلفة أو السخافة من قارب الصواب منهم فقال إنهم عرفوه بالخطاب الذي لايصدر إلا عن حنيف مسلم من سنخ ابراهيم ، نعم إنهم عرفوه بخطابه معرفة ظنية راجحة كما قلنا ، ولكنه خطاب لايدل على الاسلام ولا على نسب ابراهيم صلى الله عليه وسلم بل خطاب عارف بما وقع ، وكونه مسلما من سنخ ابراهيم ليس من مدلول خطابه بنص ولا فحوى وإن كان هو الواقع بالفعل ، فلله العجب من افتتان جماهير الناس بهذه الروايات وتقليد بعض المفسرين فيها لبعض ، من غير تأمل ولا بحث ، كأنها من كلام الله الذي يجب تلقيه بالقبول والتسليم

﴿ قال أنا يوسف ﴾ صرح باسمه العلم لانه نص قطعي الدلالة مطابق للسؤال

﴿ وهذا أخي ﴾ الذي فرقتم بيني وبينه ﴿ قد منّ الله علينا ﴾ فجمع بيننا على أحسن حال في ديننا ودنيانا ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ أي ان الامر الواقع والحق الثابت بالوحي وباستقراء التجارب هو ماتنطق به هذه القضية: من يتق الله فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما جرت به سنته في الاجتماع البشري، ويصبر على ما أصابه من المصائب والمحن وفتن الشهوات والاهواء حتى يبلغ الكتاب أجله فيها فلا يستعجل الاقدار بشيء منها قبل أوانه ﴿ فان الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ بل يوفيهم أجورهم في الدنيا ثم في الآخرة وهو من خيارهم، علق الجزاء على الاحسان في الاعمال فوضع الظاهر موضع

الضمير ، فلم يقل لا يضيع أجرهم لأنه تعليق على الوصف الجامع الذي هو علته ، وبيان للقاعدة العامة في السنة الالهية فيه ، وتواضع في وضع التعريض بنفسه في موضع التصريح بأنه كان عليه السلام كذلك في تقوى الله العامة ، وفي الصبر على الشدائد المرهقة ، وعن الشهوات الفاتنة ، ولا غرو فقد شهد له ربه بأنه من المحسنين ، وفي الآية تذكير بأن من لم يكن من المتقين الصابرين ، بأن كان من المطيعين للنفس الامارة بالسوء ، والمتبعين لنزغات الشيطان ، فان عاقبتهم الذل والخزي في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وأشد وأبقى ، إلا من تاب وعمل صالحا ثم اهتدى

٩١ ﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أي اختارك وفضلك علينا في كل شيء من خلق وخلق وعلم وعمل وجزاء واحسان . يدل على هذا العموم السكوت عن متعلق الايثار والعلم بأنه الحق الواقع بالفعل ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي والحال ان شأننا معك هو أنا كنا مذنبين متعمدين للخطيئة لا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس . أصل الايثار التفضيل بالآثار ، وهي ما يؤثر ويروى من الفضل أو ما يظهر أثره أو يبقى ، والخاطىء فاعل الخطء (بالكسر) وهو الذنب . قال في المصباح : والخطأ مهموز بفتحتين ويقصر ويمد وهو اسم من أخطأ فهو مخطىء ، قال أبو عبيد خطىء خطأ من باب علم وأخطأ بمعنى واحد لمن يذنب على غير عمد ، وقال غيره خطىء في الدين وأخطأ في كل شيء عامداً كان أو غير عامد ، وقيل خطىء إذا تعمد ما نهى الله عنه فهو خاطىء ، وأخطأ إذا أراد الصواب فصار إلى غيره ، فان أراد غير الصواب وفعله ، قيل قصده أو تعمده ، والخطء الذنب تسمية بالمصدر وخطأته بالتثقيل قلت له أخطأت أو جعلته مخطئا ، وأخطأه الحق إذا بعد عنه ، وأخطأه السهم تجاوزه ولم يصبه ، وتخفيف الرباعي جائز اه

٩٢ ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي لا محل لأي شيء من اللوم والتعنيف عليكم في هذا اليوم الذي هو مظنته فانني أعده يوم عفو وسماح وعيد ، ودخول في عصر جديد ، قال في المصباح : ثرب عليه من باب ضرب عتب ولام ، وثرّب (بالتشديد) مبالغة وتكثير . ونقل بعض المفسرين عن ثعلب : ثرب فلان على فلان اذا عدد عليه ذنوبه .

قال ابن الانباري قد انقطع عنكم توبيخي عند اعترافكم بالذنب ، وقال تبع :

فعفوت عنهم عفو غير مثرب وتركتهم لعقاب يوم سرمد

ولكن يوسف عليه السلام عفا عنهم عفو غير مثرب وتركهم لمغفرة الله تعالى وعفوه ورحمته فقال بعد نفي جنس التثريب ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ دعا لهم بان يغفر الله لهم خطاياهم معه إذ غفر هو لهم والله أولى وأحق بالمغفرة وهو أرحم الراحمين من الاقربين وغيرهم، والاصل في الدعاء أن يكون بفعل المستقبل وإنما يذكر بالفعل الماضي للتفاؤل، ويحتمل أن يتعلق الظرف (اليوم) بالدعاء على سبيل البشارة، وقد تمثل النبي ﷺ بالآية يوم الفتح فروي عنه أنه طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال «ماذا تقولون أو ماذا تظنون؟» وفي رواية زيادة «أني فاعل فيكم» قالوا نقول خيرا ونظن خيرا : ابن اخ وابن عم كريم ، وفي رواية «حليم رحيم» فقال « أقول كما قال أخي يوسف (لا تثريب عليكم) » الآية، فخرجوا كأنما نشروا من القبور . أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة وأبو الشيخ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقد كانت أخلاقه ﷺ أكرم وأحلم وأسمح وأسجح فان قومه أخرجوه (نفوه) وقاتلوه لأجل دينه وعذبوا ضعفاء أتباعه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وكان له بحسب نظام الحرب المتبع عندهم وعند غيرهم أن يقتلهم تقتيلا أو يتخذهم عبيدا

٩٣ ﴿ اذهبوا بقميصي هذا ﴾ وأشار الى قميص كان على بدنه أو بيده ﴿ فألقوه على وجه أبي ﴾ عند وصولكم اليه بلا تأخير ﴿ يأت بصيراً ﴾ أي يصر بصيراً في الحال أو يعود ويرتد بصيراً . هذا ما يدل عليه عطف هذه الجملة الشرطية بالفاء، وسأتكلم على ما قيل في القميص وسبب تأثيره ﴿ وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ من الرجال والنساء والذراري لاجل الاقامة عندي في جواري آمنين

(٩٤) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٥) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٦) فَلَمَّا

أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٧) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٨) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

---

٩٤ ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي انفصلت عير بني يعقوب من عريش مصر أو حدودها قافلة إلى أرض الشام، يقال فصل من البلد وانفصل منه ﴿ قال أبوهم ﴾ لمن حضره وكان عنده من أحفاده وغيرهم ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ في نفحة طيبة هبت علي من روحه أو أشم رائحة ذاته كما عرفتها في صغره ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أي لولا تفنيدكم إياي أي نسبتي إلى الفند وهو بالتحريك فساد الرأي، وضعف العقل والخرف من سوء الكبر، لصدقتموني في انني أجد رائحته حقيقة غير متوهم وانه حي قد قرب موعد لقائه والتمتع بقربه ورؤيته، عن ابن عباس قال: لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف قال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون: تسفهون، فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وفي رواية من عشرة أيام وفي رواية ثمانين فرسخا، والمراد من مسافة بعيدة جداً اختلفت الاقوال فيها لتعذر العلم بتحديدها، وصاحب الوجدان لا يبالي ما يقال فيه إلا مراعاة لحرمان العاذل من الشعور بمثله، وعلمه بانه لو شعر لعذر وما عذل، قال جرير بن عطية:

يا عاذلي دعا الملام وأقصرا   طال الهوى واطلتما التفنيدا

---

٩٥ ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي قال حاضروا مجلسه تالله إنك لفي خطئك الذي طال أمده في اعتقادك أن يوسف حي يرجى لقاؤه وقد قرب، أو في الأفراط في حبه والاصرار على اللهج به، وتوهمك وجدان رائحته، فالضلال يطلق على الخطأ في الطريق الحسي والمعنوي ومنه الخطأ في الرأي والاعتقاد والحب

والبغض والعمل، ولا غرو فالخلي أن يقول في عذل الشجي مايشاء، فاذنه عن العذل صماء

سلوتي عنكم احتمال بعيد ... وافتضاحي بكم ضلال قديم
كل من يدعي المحبة فيكم ... ثم يخشى الملام فهو مليم
لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

٩٦ ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ وهو ابنه الذي يحمل القميص من يوسف ، وعن ابن عباس والضحاك أنه البريد ، ويتجه أن يكون قد سبق العير اليه بريداً وبشيرا ومن المعقول ما قيل من أنه هو الذي حمل اليه قميصه الملطخ بالدم الكذب تحرى ذلك ليمحو السيئة بالحسنة ، قالوا وهو يهوذا ، وهذا الرأي يحتاج الى رواية مثله في حسنه تؤيده ، فمن أين جاء به مجاهد والسدي ؟

﴿ ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما كان ، وزاد بعضهم انه عادت اليه سائر قواه ، ولا غرو فالشفاء من الامراض وتجدد قوى الارواح والابدان بتأثير السرور العظيم غير منكر عند الاطباء ولا في تجارب الناس، فما القول بتجارب الانبياء والاصفياء، وبما يزداد لهم بعناية الله من خوارق العادات ، والآيات البينات ، ورووا انه سأل البشير عن دين يوسف فيما هو فيه من زينة الملك وعظمته ؟ فقال الاسلام ، قال الآن تمت النعمة !! وأقول إن مخترع هذا السؤال لقليل العلم وضعيف الذوق، فلو كان يعقوب يخاف على دين يوسف فيشك فيه لما كان وجده به ما علمنا ، وحزنه عليه ما قرأنا وسمعنا ، بل كان مؤمنا منذ قص عليه رؤياه بأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب به كما أتمها على أبويه من قبل ابراهيم واسحاق ، فكيف يسأل عن دينه سؤال الشاك المرتاب، تأملوا كيف أجاب العاذلين بما كان عليه من العلم الالهي القطعي ؟!

﴿ قال إني أعلم من الله مالا تعلمون ﴾ فذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو انه يعلم من أمر يوسف مالا يعلمون، وان علمه هذا وحي من الله عز وجل لا من خطرات الاوهام ، ولا من أخيلة الحب والغرام، واننا في هذا المقام نبسط القول في وجدان يعقوب ريح ولده مع التصريح

بأنه يكفي احدنا الايمان بظاهره من غير بحث عن حقيقته وصفة وقوعه، ومادام مصدقا للقرآن ، فهو في حظيرة أهل الايمان، ولكن العلم بصفته وسنة الله فيه زيادة كمال

﴿ بحث في وجدان يعقوب رائحة يوسف والوجوه فيها ﴾

قد ثبت عند علماء الغرب في هذا العصر ان الرياح تحمل الغبار وما فيه من المواد المختلفة من أفريقية إلى أوربة مثلا في مسافات أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام العليا (فلسطين) وهي تحمل رائحة ماله رائحة منها بالطبع، ولكن الغرابة في شم البشر لها من مسافة بعيدة كهذه ، وبعض الحيوان من الوحوش والحشرات أقوى وأبعد شما من الناس ؛ والروائح منها القوي والضعيف، ومن أضعفها رائحة جسم الانسان وعرقه وما يصيب ثوبه منها ، ومن الناس من يميز بين روائح الاسرة الواحدة بل الاخوة منهم ، ولكن مانحن فيه من خوارق العادات، وخواص عالم الغيب لا سنن المواد والاجسام، فقد قيل ان قميص يوسف هذا كان لجده ابراهيم ﷺ وان جبريل جاءه به من الجنة حين ألقي في النار فكانت عليه برداً وسلاما، وان الرائحة التي وجدها يعقوب هي رائحة الجنة ، والمعجزات لا تنكر على أهل هذا البيت المرحوم المبارك عليهم السلام ، ولكن أفرادها لا تثبت عند الناس إلا بدليل حسي أو بوحي إلهي ، والوحي يقول حكاية عن يعقوب إنه وجد ريح يوسف لا ريح الجنة من قميصه وانما ريح قميصه بالطبع ريح بدنه

وقد ثبت عند الروحانيين أن للارواح رائحة بل روائح مختلفة متفاوتة ، فللعصاة الفاسقين روائح خبيثة تنتشر في الهواء فتدنسه على الذين يشمونها من طاهري الارواح ، كما تنتشر فيه ميكروبات أنفاس المرضى فتفسده، يعرف هذا أطباء الاجسام، ويعرف ذلك أطباء الارواح ، قال بعضهم لمريده : قم يا بني نستنشق نسيم الصباح قبل أن تدنسه أنفاس العصاة ، وقد جهل هذا أبو العتاهية إذ قال :

أحسن الله بنا ... أن المعاصي لا تفوح

فهي تفوح ولكن لا يدرك رائحتها إلا بعض الافراد في بعض الاوقات ، وكذلك الروائح الذكية، للارواح الزكية ، انما تدرك في بعض الاحوال التي تغلب

فيها الروحانية، أو توجه الإرادة، وقد يشمها غيرهم بتوجههم كما تواتر عن الشيخ علي العمري من معاصرينا وحكى الشيخ محيي الدين في الفتوحات أن الشيخ عبد القادر الجيلي كان يعرف الرجال - أي درجاتهم في المعرفة - بالشم، فجاءه محمد بن قائد وكان يظن ان له درجة عالية في المعرفة، فشمه عبد القادر فأنكره وقال له لا أعرفك! فعلت همة ابن قائد حتى التحق بالافراد، وكان لشيخنا الاستاذ الامام اخت روحانية فكانت تصعد الى سطح دارهم في محلة نصر وتستنشق ريح أخيها وهو في الازهر وتعرف في بعض الاحيان من رائحته أنه خرج من مصر قاصداً بلدهم فتخبر به فتصدق. أخبرني شيخنا بهذا وقلما كان يتحدث بمثله الى أحد من أصحابه لأن رأيه أنه لا ينبغي التحدث بذلك إلا لاهله أو من لا يفتتن به، فان من الناس من يكذب هذا وكل ما هو غير طبيعي معتاد من أمور الناس، ومنهم من يصدق كل ما يسمعه منه وأكثره دعاوي باطلة وخرافات تستغل وتستثمر، إذ يظن مصدقوها ان أصحابها أولياء قديسون، وانهم يضرون وينفعون، فتفسد عقائدهم بجعلهم شركاء لله في التصرف في العالم بما هو مخالف للسنن العامة في الاسباب والمسببات

فأنا أكتب هذا لتعليل آية الله لهذين النبيين عليهما السلام بشيء هو من سنة الله في بعض الروحانيين، مع اتقاء الكذب عليهم وعلى الله بدعوى خاصة بعالم الغيب لم يثبت بها النقل الصحيح، اعني قولهم ان القميص من الجنة الخ

(فان قيل) عهدناك مفسرا تجمع بين نصوص الوحي وقضايا العقل وتجارب العلم، فهل تقول إذن إن الآية تثبت أن للارواح رائحة قد تشم من المسافات البعيدة كبعد أرض مصر من أرض كنعان في فلسطين وانه يجب علينا ديناً أن نؤمن بهذا؟ أم ماذا يجب علينا اعتماده في الآية

(قلت) إن نص الآية أن يعقوب عليه السلام أخبر عن نفسه أنه وجد رائحة ولده يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، وهذا أمر وجداني نفسي لا يجب على كل مؤمن أن يعرف كنهه أو سببه، وإنما علينا أن نصدقه لانه معصوم من الكذب، والله تعالى هو الذي حكاه عنه، وقد تبين صدقه بالفعل، وفي العبارة وجوه ونظريات تختلف باختلاف الافكار والتربية والتعليم وهي أربع لأربع طوائف من المسلمين:

(١) إذا صور ذلك أحد المفكرين الذين تغلب عليهم الافكار المادية بأنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه، شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الاولى ، كان مصدقا له في أمر لا يعارضه العقل ولا ينقضه العلم ، وإن كان هذا الشعور من النوع الذي يسمونه بالوهم ، ولكنه يكون ميلا عن التفويض الى التأويل لحالة بشرية لا لصفة من صفات الله تعالى فتأويله لاخطر فيه

(٢) إذا قال المؤمن بالظواهر من غير تعليل لها ولا تصوير لكيفيتها انني أصدق، ولا يكلفني ديني أن أعرف كيف وجد تلك الرائحة لان هذه المدارك الوجدانية كثيرة يظهر منها في كل زمن ما يعجز العلماء الباحثون عن معرفة سببه فضلا عن كنهه — لم يكن هذا القائل بعيدا في إيمانه هذا عن العقل ولا عن العلم ، فلا خلاف بين العلماء بأن ما يجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه ، وهو أقرب الى الصواب ممن قبله لانه مفوض لا متأول أو مؤول ، على أن التأويل لصفات الله تعالى هو المخالف لهدي السلف ويليه أخبار عالم الغيب ، لا التأويل لوجدان فيما يحتمل أن يكون من شئون البشر

(٣) إذا ذهب اللغوي البياني الى أن هذه الجملة استعارة أو كناية عبر بها نبي الله عن وجدانه وشعوره بقرب لقاء ابنه المحبوب حتى كأنه حاضر يشم رائحته لم يكن بعيداً - فان بلغاء العرب يعبرون عن الشيء بلازمه ويشبهون المعاني النفسية بالمدركات الحسية وعكسه، ومنه: اننا نشم من الوجه الأول رائحة الاعتزال، وفي الثاني هذا كلام فيه رائحة الاخلاص ، ومن أبلغ ما سمع في هذا الباب قول امرأة كعب بن الاشرف له : انني اسمع صوتا يقطر منه الدم ، أي يدل على قصد الاغتيال . وليس هذا من تأويل المتكلمين الذي هو خروج عن الظاهر لمانع يمنع منه

(٤) إذا جنح الصوفي لقول الروحانيين إن وجدان هذه الريح كان من مدارك الروح الخاصة — لم يكن جانحا الى محال في نظر العقل ، ولا ناكبا عن أصل قطعي من أصول العلم ، فان الذين يثبتون ذلك من كبار العلماء والصوفية أجدر بالثقة في النقل من الذين يثبتون في هذا العصر غرائب التنويم المغناطيسي واستحضار الارواح وقراءة الافكار ومراسلتها ، فهذا وسط بين المصدق المفوض

في الخبر من غير تعليل ، وبين الذي يذهب فيه إلى ما تقدم من تأويل ، وأما من وقع له مثله من خصائص الارواح فهو عنده من عين اليقين ودونه علم اليقين، ولكنه خاص بصاحبه، اذ لا يدركه الا مثله ولولا ذلك لعد من الحسيات المادية.

(فان قيل) علمنا من هذا التفصيل أن المؤمن بالقرآن يجب عليه في هذه المسألة أن يعتقد أن يعقوب عليه السلام كان صادقا فيما أخبر به عن وجدانه ولا يضره ترجيح وجه من الوجوه الاربعة في فهمها ، ويظهر انك ترجح الاخير منها فما وجه هذا الترجيح ؟

(قلت) المتبادر من الآية أن فيها خصوصية تنظم هذا الوجدان في سلك خوارق العادات، والاصل في مثل ذلك أن يفوض كنهه أو كيفيته الى من وقع له من الانبياء مادام ممكنا ، إلا من اتفق له ادراك جنس هذه الكيفية وعلم أنها من السنن الروحية كابراء المسيح للاكمه والابرص باذن الله لا كمعجزة العصا واليد لموسى عليهما السلام . وإني خبرت هذا الوجدان نفسه بنفسي ، وأدركت رائحة الارواح الطيبة كأني أشمها بأنفي، ولولا انها حالة خاصة لماقلت كأني .. ولقد كنت فيه دقيق البحث لئلا أكون واهما أو مخدوعا ، وطالما ظننت فيما كان يقع مشتركا بين جماعة أن الذي يعقد رابطة التوجه بينهم وبين الروح الذي يذكر اسم صاحبه — وهو كمستحضر الروح عند الافرنج — أنه يلقي رائحة عطرية غريبة الذكاء بينهم، حتى صرت أجد ذلك خاليا وكان يكون متقطعا ، وكنت أتردد قبل ذلك في أخبار من لا أتهمهم بالكذب فيها ، ولا أرى بسط ذلك في التفسير وقد ذكرت شيئا منه في غيره (ككتاب المنار والازهر) ولولا أن هذه المسائل الروحية قد كثر البحث عنها في هذا العهد عند علماء الغرب ومقلديهم لما تعرضت لها فراراً من فتون أكثر أهل بلادنا بل الشرق كله بكل ما هو مخالف للسنن العامة

(فان قيل) ان الذين يعنون باستحضار الارواح لم ينقل عنهم أنهم يشمون لها رائحة

(قلت) لم يثبت عن هؤلاء احضار روح عالية قدسية ولا رابطة بها ، وإن الراجح عندي فيما يصح عندهم أنه من تمثيل الجن لهم لا من أرواح البشر ، وأن الصوفية من

المسلمين والهنود يتمثل لهم الجنسان ، ولا يميز بينهما إلا الانبياء وعلماء القرآن والسنة من الصالحين ، وأن ماوجده يعقوب كان من توجه روح يوسف له عند ماأذن له أن يتعرف اليه بالروح قبل الجسد ، وكان في وجدانه ريحه على علم من الله تعالى لا من خيال الوهم ولا من ضلال الشيطان ،

(فان قيل) أليس من ثبت عنه انه يرى الارواح العالية ويشم ريحها ويسمع كلامها يكون وليا صاحب كرامات يرجى نفعه ويخشى ضره بما هو وراء الاسباب والسنن العامة ؟ أو يؤخذ كلامه في العلم والدين بالقبول والتسليم ؟

(قلت) لا لا ، إن من يقع له إدراك شيء مما ذكر إنما يقع له بسبب من الرياضة الخاصة ، وقد يقع له الخطأ فيه والوهم ، وقد يكون مايجهله من جنسه أكثر مما يعلمه ، دع ماليس من جنسه كالعلوم التي لاتعرف إلا بالتلقين ، ثم انه لا يمكن أن يكون قادرا على نفع الناس أو ضرهم من غير طريق الاسباب العامة ، ولا يوثق بعلمه في الدين إلا إذا كان مستمداً من الكتاب والسنة ، وقد فصلنا هذا مراراً ، فمثل الذي يقف على حقيقة روحية بتأثير الرياضة الخاصة في نفسه كمثل الذي يقف على بعض الحقائق من طريق البحث الحسي والعقلي فهم فيهما سواء ، والولاية الشرعية إنما تكون بمعرفة كتاب الله وسنة رسوله والتزامهما بالعمل والاخلاق ، مع الصدق والاخلاص ، فتأمل هذه المسائل فانها تحل لك كثيرا من المشاكل ، وانت حر في قبولها وردها

٩٧ ﴿ قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي قال أولاده وكانوا قد وصلوا في إثر البشير أو معه وانما تقدمهم استعجالا لنعمة البشارة وماتبعها من ارتداد البصر وغيره من السرور والنشاط والعافية : ياأبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا الكثيرة التي اقترفناها من عقوقك وايذاء أخينا أو أخوينا ﴿ إنا كنا خاطئين ﴾ متعمدين لهذه الخطيئة عاصين لله بها ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين ، اعترفوا له بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف ، ولكن يوسف بادر الى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، واسمع ما كان جواب أبيهم

٩٨ ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ وعدهم باستغفار ربه لهم في المستقبل

المبهم وعلله بقوله ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ فكرر اسم الرب مضافا اليه ووصفه بالمغفرة والرحمة الواسعة التي لا ينقطع منها رجاء المؤمن وان أساء وظلم، فالفرق بين جوابه وجواب يوسف من وجوه اقتضتها الحكمة

(الاول) ان حال يوسف معهم حال الحاكم القادر بل الملك القاهر مع المسيء اليه الضعيف لديه، الذي كبرت اساءته فاستحيا من طلب غفرانها بشفاعته ودعائه ، فتبرع لهم به تأمينا لهم من خوف الانتقام وكان قادرا عليه ، وتعجيلا لهم بسرور الحياة الجديدة التي جعل الله أزمة نعمها بيديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، والمثل الاعلى في حسن الاسوة ، وما يجب ان يكون عليه الاخوة ، وهو الجزاء بالاحسان على الاساءة ، فهذه أفضل تربية وأكمل عبرة من الاخ الكامل لاخيه الناقص ، ولو أخر هذا لكان تأخيره ضربا من الانتقام منهم، اذ يكونون في وجل مما سيحل بهم

(الثاني) ان حال أبيهم معهم حال المربي المرشد للمذنب الذي لا يخشى منه انتقاما ، وليس من حسن التربية ان يريهم أن ذنبهم هين لديه ، وانه ليس بينهم وبين شفاعته لهم عند الله بغفرانه الا كلمة يقولونها بألسنتهم

(الثالث) أن ذنبهم لم يكن موجها اليه بالذات وانما كان موجها إلى يوسف وأخيه بالذات وأصابه هو بالعرض أو بالتبع واللزوم ، ومن العدل أن يكون استغفاره لهم بعد العلم بحالهم معهما وعفوهما عنهم ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم

(الرابع) ان هذا الذنب الكبير من الآثام التي طال عليها العهد ونشأ منها ما نشأ من الضرر لا تغفر بحسب شرع الله وسننه في تأثير الاعمال في الانفس الا بتوبة نصوح تطهر النفس من خبثها ، فلا يحسن من المرشد الحكيم أن يسارع الى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه متصلا به كأنها من اللمم، الذي يغفر بيادرة من الندم ، فكان من حكمة هذا الاب الحكيم الرحيم أن يتمكث في الاستغفار لهم الى أجل مجهول ليعلم هو ذلك كله ، وأن يعلمهم بانه سوف يتوجه به إلى ربه الذي

رباه بفضله ورحمته ، وأعاد لفظ الرب مضافا اليه لاشعارهم أن هذه الاضافة هي محل الرجاء في الاستجابة له ان يغفر خطاياهم ، وإنما مغفرتها سترها ومحو ظلمتها من قلوبهم ، بعد جعل توبتهم التي يشبه ان تكون اضطرارية توبة نصوحا

ولا ينافي هذه المعاني والحكم التي من الله علينا بفهمها وبيانها ما روي عن ابن مسعود موقوفا وابن عباس موقوفا ومرفوعا من انه أخرهم إلى السحر لان دعاء السحر مستجاب، وفي رواية عن الثاني انه اخرهم حتى تاتي ليلة الجمعة ، بل يؤيده لانه لم يتحر وقت الرجاء في الاستجابة وان تأخر على اقتضاء رحمته الوالدية التعجيل الا لأن الامر جالل يتعارض فيه الخوف والرجاء . وقد ذكر العماد ابن كثير في تفسيره وتاريخه عن ابن جرير حديث ليلة الجمعة بسنده وقال : وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه، والاشبه أن يكون موقوفا على ابن عباس (رض) ولا يصح شيء مما روي في دعاء يعقوب لهم وحده ولا مع يوسف وفيما أوحى اليه من استجابته تعالى له فيهم وجعلهم في ديوان الانبياء

خاتمة قصة يوسف عليه السلام في تأويل رؤياه

وما فهمه أبوه منها

(٩٩) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (١٠٠) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

ههنا كلام يدل عليه السياق بالاجمال حذف إيجازاً على منهج القرآن في الاقتصار على ما فيه العبرة المرادة من الكلام، والمعنى أن إخوة يوسف بلغوا أباهم وسائر أهلهم مكانة يوسف في مصر وأنه هو الحاكم المفوض المستقل في أمرها (ديكتاتور) من قبل ملكها، وأنه محبوب مجمع على إجلاله فيها، وأنه يدعوهم كلهم للاقامة معه فيها والتمتع بحضارتها، فرحلوا بقضهم وقضيضهم، وإنعامهم ودوابهم، حتى بلغوها واستقبلوا فيها بما يليق بمقامه

٩٩ ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ﴾ ظاهر العبارة أن أمه كانت لا تزال حية، وقال الذين أخذوا بقول اليهود إنها كانت قد ماتت: إن المراد بأبويه والده وخالته وقد كان أبوه تزوجها بعد أمه، وهذا جائز في اللغة إن صح الخبر ونحن لا ثقة لنا بصحته فنأخذ بظاهر الآية دون غيره كما قال ابن جرير الطبري (ر ح) ومعنى إيوائهما إليه ضمهما الى نفسه، وجعله إياهما معه في قصره وهو مأواه الخاص به ﴿ وقال ادخلوا مصر ﴾ أي وقال لسائر أهله ومن معهم ادخلوا مصر قال ابن عباس معناه أقيموا فيها، إذ كانوا قد دخلوها فكان الأمر بدخولها عبارة عن الاذن باستيطانها، وقيل إن يوسف استقبلهم في الطريق احتفاء بهم فقال لهم ذلك في مكان الاستقبال أو عند الوصول الى العاصمة ﴿ إن شاء الله آمنين ﴾ على أنفسكم ومواشيكم من المنع المعتاد للغرباء، أو من الجوع والهلاك فان سني القحط لم تكن انتهت بعد، والتعليق بمشيئته تعالى هو شأن المؤمنين ولا سيما الانبياء والصديقين، فيوسف في إسداء هذه النعمة إلى أهله يتبرأ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذي سخره لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم

وفي سفر التكوين أن يوسف (ع . م) عرف نفسه الى اخوته عقب مجيئهم ببنيامين شقيقه، وأرسلهم لاستحضار أبيهم وأهلهم فجاؤا فأقطعهم أرض جاسان (وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدة من جوار أبو زعبل الى البحر الاحمر) وأرسل اليهم العربات لتحملهم، وأحمال الغذاء والثياب على الحمير، فلما وصلوا اليها (٤٦: ٢٩ شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقي اسرائيل أباه في جاسان فلما ظهر

له ألقى بنفسه على عنقه وبكى على عنقه طويلا ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقرهم عليه لانهم رعاة وأرض جاسان خصبة ، ففعل ثم أخذ وفداً منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون ، فيظهر أن هذا اللقاء كان هو الاول لهم ، ثم إنه بعد لقاء فرعون قال لهم (ادخلوا مصر) الخ ، ثم عاد بهم إلى قصره الخاص

١٠٠ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أصعد أبويه إلى السرير الذي كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك ، فالعرش كرسي تدبير الملك ، لا كل كرسي يجلس عليه الملك ﴿وخروا له سجداً﴾ أي وأهوى أبواه واخوته إلى الارض وخروا له سجدا ، وكان السجود تحية الملوك والعظماء في عصرهم ، حتى ان يعقوب سجد لاخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق وكان يخاف عاقبة ذلك التلاقي كما تراه في سفر التكوين . والسجود ليس عبادة بذاته وإنما جعله الدين عبادة فهو يكون عبادة بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي إن هذا السجود منكما ومن إخوتي الأحد عشر هو المآل الذي آلت اليه رؤياي التي رأيتها من قبل في صغري إذ (رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) ﴿قد جعلها ربي حقا﴾ واقعا ولم تكن حديث نفس من أضغاث الاحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتي الاحد عشر ، وأنت وأمي مثال الشمس والقمر ، ولا غرو فهذه الاسرة هي التي أراد الله بها حفظ ذرية إسحاق بن ابراهيم لنشر دين التوحيد في العالمين فكانت خير أسر البشر ﴿وقد أحسن بي ربي﴾ : يقال أحسن به وأحسن اليه ﴿إذ أخرجني من السجن﴾ إلى عرش الملك ، ذكر آخر المحن والفتن (البلاء والاختبار) المتصل بغاية النعم ، ومن العجب أن يستشكل المفسرون عدم ذكر الاخراج من الجب هنا ويبحثوا له عن علة ، وكان أول البلاء وقد خرج منه إلى الرق وبيعه بثمن بخس ، وما اتصل به من تلك السلسلة الطويلة في الفتنة

﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ حيث كنتم تعيشون في شظف البادية وخشونتها ووحشيتها الى الحضر حيث تعيشون في نعم الاجتماع ونشر الدين الحق والتعاون على العلوم والصناعات ، فالبدو خلاف الحضر ومعناه الاشتقاقي كل مكان يبدو كل ما يعن ويعرض فيه للانظار : من بدا يبدو إذا ظهر ظهوراً بيناً ، يقال بدى الى البادية بداوة (بالفتح والكسر) أي خرج فهو باد . ومنه (يودون لو أنهم بادون في الاعراب) وفيه تفضيل الحضارة على البداوة ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي ﴾ أي أفسد ما بيننا من عاطفة الاخوة وقطع ما بيننا من صلة الرحم ووشيجة القربى باغراء الحسد وتهييج الشر : هذا مايدل عليه نزغ الشيطان فان أصل النزغ نخس الرائض الفرس ونحوه بالمهماز لازعاجه للجري ، يقال نزغه ونخسه ونسغه ، والعامة تقول نغزه : بقلب نزغه بمعنى طعنه بما يهيجه ويزعجه . قال في الاساس : ومن المجاز نزغه الشيطان كأنه ينخسه ليحثه على المعاصي ، ونزغ بين الناس أفسد بينهم بالحث على الشر اه ولا يوجد في اللغة على سعتها تعبير ألطف وآدب وأدل على كمال التواضع من هذه العبارة الوجيزة : جعل ذلك النزغ المزعج إلى أجرأ الشر والافساد كأنه كان مشتركا بينه وبينهم تقع تبعته على كل منهما ، وما كان إلا من جانب واحد ، ثم قال ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي بالغ أقصى اللطف بعباده في التدبير والرفق في التسخير لتنفيذ مايشاء في خلقه من الحكمة البالغة والوصول إلى المقاصد الحسنة والغايات النبيلة ، بحيث لا يشعر من لطف به عند وقوع الاسباب والوسائل بغايتها إلا عند وصوله اليها ، فمن ذا الذي كان يخطر بباله أن الالقاء في الجب وما أعقبه من الرق ، وما تلا الرق من فتنة العشق ، يفضي إلى السجن ، وان السجن ينتهي بالسيادة والملك ؟ ﴿ انه هو العليم ﴾ بما لكل قدر من عمل ، وما لكل عمل من أجل ، ﴿ الحكيم ﴾ في بلوغ مشيئته في ذلك كله كمال المصلحة في جزاء الذين أحسنوا بالحسنى وجعل العاقبة للمتقين ، فحمد يوسف لربه على لطفه في مشيئته ، وعلمه وحكمته ، من أجل الحمد والثناء ، وناهيك بجمله مقدمة لما تلاه من الدعاء ، وهو

﴿ دعاء يوسف عليه السلام بحسن الخاتمة ﴾

(١٠١) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

تحول عليه السلام عن خطاب والده في بيان هذه العاقبة المثلى، في مقام الشكر لربه وحمده بما يناسب المقام من صفاته، إلى مناجاة ربه في الاعتراف بها والشكر عليها، وسؤاله حسن الخاتمة في الدنيا الرافعة إلى منتهى السعادة في الآخرة، لشعوره بأن ما خلقه له من الخير والنعمة قد تم كما فهمه أبوه، وكل شيء بلغ حده في هذه الحياة انتهى فقال:

١٠١ ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ أقصى ماينبغي لمثلي ويصلح له في غير قومه ووطنه، فجعلتني متصرفا في ملك مصر العظيم بالفعل، وإن كان لغيري بالاسم والرسم، فكان تصرفي مرضيا له ولقومه، لم يثر علي حسد حاسد ولا بغي باغ مما ذقت مرارته بمجرد تصور وقوعه على تقدير صدق الرؤيا الدالة عليه ﴿ وعلمتني من تأويل الاحاديث ﴾ ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت ﴿ فاطر السموات والارض ﴾ أي خالقهما ﴿ أنت وليي ﴾ الذي توليت ولا تزال تتولى أموري كلها ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ لا حول لي في شيء منها ولا قوة ﴿ توفني مسلما ﴾ لك إذ تتوفاني بما تم لي وصية آبائي وأجدادي، وهي المشار اليها بقوله تعالى (٢: ١٣١ ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب: يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ منهم واحشرني معهم، فهذا الدعاء العظيم، بمعنى قوله تعالى في فاتحة القرآن (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم) أي من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الاسلام

﴿ إلى هنا انتهى تفسير المرحوم السيد الامام وقد تفضل العلامة السلفي الاستاذ محمد بهجت البيطار باكمال تفسير هذه السورة وهذا ما تكرم به: ﴾

(١٠٢) ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٣) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ

الآية ١٠٢ إشارة إلى قوله تعالى في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) وسورة يوسف (ع . م) قصة نبي واحد وجد في غير قومه قبل النبوة صغير السن ، وبلغ أشده واكتهل فنبيء وأرسل ودعا إلى دينه وكان مملوكا ، ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم « وهو القطر المصري » فأحسن الادارة والتنظيم ، وكان خير قدوة للناس في رسالته وجميع مادخل فيه من أطوار الحياة ، وأعظمها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، فكان من الحكمة أن تجمع قصته في سورة واحدة وهي أطول قصة في القرآن افتتحت بثلاث آيات تمهيدية في ذكر القرآن وحسن قصصه ، ثم كانت إلى تمام المائة في تاريخ يوسف ، وختمت باحدى عشرة آية في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النبيين ، وإعجاز كتابه ، والعبرة العامة بقصص الرسل (ع . م) (*)

١٠٢ ﴿ ذلك ﴾ أي نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف رفعه الله عليهم ، ومكن له في الارض ، وجعل له العاقبة والنصر ، والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك ﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي من أخبار الغيب الذي لم تشاهده ولم تعاينه ، ولكننا (نوحيه إليك) ونعرفكه لنثبت به فؤادك ، ونشجع به قلبك ، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله ، وتعلم أن من قبلك من رسل الله لما صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعرف ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر ، وأيدوا بالنصر ، ومكنوا في البلاد ، وغلبوا على من

(*) راجع تفسير المنار ج ١٢ ص ٢٥٠

قصدوا من أعدائهم ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً ، ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي اتفقت آراؤهم وصحت عزائمهم ، أو عزموا عزما إجماعيا لا تردد فيه ، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب ، وذلك مكرهم الذي قال تعالى ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك ، وإنزالا عليك ، وقد تقدم الكلام على إجماع الامر عند قوله تعالى (٧١ فأجمعوا أمركم وشركاءكم) من سورة يونس ، وعلى لفظ المكر أيضا (ج ٣ ص ٣١٥ و ج ٨ ص ٣٣ من تفسير المنار) ثم إن من قرأ قصة هذا النبي الكريم في سفر التكوين ، وهي في الفصل أو الاصحاح ٣٧ وما بعده ، ثم تلاها في هذا الذكر الحكيم ظهر له الفرق واضحاً بين ما كان وحياً معجزاً وما كان كلاما عاديا من قول البشر ، أو من الروايات الاسرائيلية التي جعلها نقاد الحديث ورواته مضرب المثل في الكذب وردها المحققون من المفسرين كالحافظ ابن كثير ، وكل ماذكره القرآن من قصص الرسل فهو من أنباء الغيب الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) وقال سبحانه (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الامر) الى قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) الآية ، وقال (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلي إلا إنما أنا نذير مبين)

أما وقد أصاب بعض الكتب الالهية ما أصابها من التحريف والتبديل ، « كالتوراة والانجيل » وحجبت أنوارها ومقاصدها عن العقول البشرية ، فمن رحمة الله بعباده أن لا يدعهم يتخبطون في ديجور الضلالة ، ويتيهون في أودية الجهالة ، بل يجدد لهم وحيه ، ويعيد على أسماعهم قوله ، بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بل يحفظه الله تعالى بحفظه (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وقال تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) . فالقرآن هو المعجزة العظمى التي تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من قول البشر ، والدليل

على ذلك أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يطالع الكتب ، ولم يذاكر العلماء ، أليس من البراهين القطعية على صدق نبوة محمد ﷺ أنه كان أميا نشأ بين قوم أميين ، ثم أخبر بمثل ما أخبرت به الانبياء من الشؤون الغيبية دون أن يتعلم من بشر؟! بلى . وهو كما قال تعالى في سورة هود بعد ذكر قصة نوح (ع.م) (١١ : ٤٩ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها ، ولما ادعى بعض الجاحدين أنه يعلمه بشر إذ رأوه يقف على قَيْن «حداد» رومي بمكة رد الله دعواهم بقوله (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) من ألحد فلان إذا مال عن الحق

١٠٣ ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ يقول جل ثناؤه وما أكثر مشركي قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا فيصدقوك ويتبعوا ماجئتهم به من عند ربك ، بمصدقيك ولا متبعيك(*) وذكر الفخر الرازي في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ماذكره الله تعالى في قوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) . ويرى السيد الامام أن الحكم في مثل هذه الآية عام ، وأنه من دقة القرآن في الحكم على الامم والشعوب إذ أنه يحكم على الكثير أو الاكثر بعدم الايمان كما في الآية المتقدمة ، وقال (وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله) وكقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) والقرآن لم يحكم على أمة بالضلال والفسق بنص عام يستغرق جميع الافراد ، بل تارة يعبر بالكثير وتارة بالاكثر ، وإذا أطلق أداة العموم يستثني بمثل قوله في بني اسرائيل (ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون) وقوله فيهم (فلا

(*) كذا قال ابن جرير والمراد من عاشوا منهم وماتوا على الشرك جحوداً واستكباراً، ومن فوائد هذا البيان إراحة قلب الرسول (ص) منهم وتوجيه دعوته الى أولي البصيرة والاستعداد

يؤمنون إلا قليلا) أو يحكم على البعض ابتداءً كما قال فيهم وفي النصارى (منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون) فقد أثبت لبعضهم الايمان والاقتصاد أي الاعتدال في الدين ، والهداية بالحق والعدل ، وقال (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين، وأهل الايمان المخلصين الذين يتحرون الحق هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم. قال السيد الامام قدس الله روحه : إن القرآن يبين حقائق ما عليه الامم في عقائدها وأخلاقها وأعمالها ، يزن ذلك بالقسطاس المستقيم ، والدقة التي نراها في القرآن لم نعهدها في كتاب عالم ولا مؤرخ ، فاذا نحن جمعنا ما حكم به على أهل الكتاب وغيرهم ، وعرضناه على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم فانهم يذعنون بأنه لباب الحقيقة ، بل هم يصرحون بأنه لولا غلبة الضلال والفسق والكفر عليهم في عصر ظهور الاسلام لما انتشر ذلك الانتشار السريع ، ولكن وجد فينا « معشر المسلمين » من طمس هذه المزية وجعلوا كل ما ينكره القرآن من فساد الامم من قبيل هجو غير المسلمين ، وكل ما يحمده هو خاص بالمسلمين ، حتى كأنه شعر لا يقصد منه إلا مدح أناس وذم آخرين، وبهذا ينفرون غير المسلمين من الاسلام ، ويحولون بين المسلمين وبين العبرة والاتعاظ ، وفهم الحقائق اه

١٠٤ ﴿ وما تسألهم ﴾ أي وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك يا رسول الله ﴿ عليه ﴾ أي على هذا القرآن الذي أمرت أن تدعوهم اليه ، وتذكرهم به أو على ما تدعوهم اليه من إخلاص العبادة لربك ، وهجر عبادة الاوثان ، وطاعة الرحمن ، وكلاهما مفهوم من السياق وإن لم يذكر ﴿ من أجر ﴾ من ثواب وجزاء منهم ، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله ، أي ما تسألهم على ذلك مالا ولا غيره من المنافع فيقولوا لك إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك لننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك ، كما أن جميع من قبلك من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجراً على التبليغ والهدى ، وذلك مصرح به في قصصهم من سورة هود وسورة الشعراء وغيرهما ،

وإذ كنت لا تسألهم ذلك ، فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك انما تدعوهم اليه اتباعا منك لأمر ربك ، ونصيحة منك لهم ﴿ ان هو الا ذكر للعالمين ﴾ أي ماهذا الذي أرسلك به ربك إلا تذكير وموعظة لارشاد العالمين كافة ، لا لهم خاصة ، وهو نص في عموم رسالته ﷺ

(١٠٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٦) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٧) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٠٨) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٩) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

---

١٠٥ ﴿ وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ (كأين) بمعنى كم الخبرية وفيها لغتان فصيحتان ، كائن بوزن فاعل ؛ وبها قرأ ابن كثير ، وكأين وبها قرأ الباقون . يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه سبحانه في السموات والارض فيقول عز وجل كم من آية في السموات والارض لله وعبرة وحجة ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات ، وكالجبال والبحار والنبات

والاشجار وغير ذلك من آيات الارض ، يمرون عليها معرضين عنها لا يعتبرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربها ، وأن الالوهة لا تنبغي إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فدبرها

قال السيد الامام في تفسيره : قد يتفكر المرء في عجائب السموات والارض وأسرار مافيهما من الاتقان والابداع والمنافع ، الدالة على العلم المحيط ، والحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، والقدرة التامة وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم ، الذي خلق ذلك في أبدع نظام ، وكم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر في باله صانعها اشتغالا بها عنه ، فالذين يشتغلون بعلم ما في السموات والارض وهم غافلون عن خالقها ذاهلون عن ذكره ، يمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ، ومعرفة الله عز وجل . فالفكر وحده وان كان مفيدا لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وان أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فيا طوبى لمن جمع بين الامرين ، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ونجوا من عذاب النار في الآخرة ، فتلك النعمة التي لا تفضلها نعمة (راجع ص ٢٩٩ ج ٤ من تفسير المنار) .

قرىء (والارض) بالرفع على الابتداء و (يمرون عليها) خبره، وقرأ السدي (والارض) بالنصب ، ويطؤون الارض يمرون عليها ، وفي مصحف عبد الله : والارض يمشون عليها برفع الارض وهي قراءة تفسير ، والمراد مايرون من آثار الامم الهالكة ، وغير ذلك من العبر . ومن مباحث اللفظ أن (كأين) اسم مركب من كاف التشبيه وأي المنونة ، ولذلك جاز الوقف عليها بالنون ، لان التنوين لما دخل في التركيب أشبه النون الاصلية ، ولهذا رسم في المصحف نونا ، ومن وقف عليها بحذفه اعتبر حكمه في الاصل وهو الحذف في الوقف ، ومميزها مجرور بمن غالباً نحو قوله تعالى (وكأين من نبي - وكأين من آية - وكأين من دابة)

ثم قال تعالى ١٠٦ ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال الامام ابن جرير : وما يقر أكثر هؤلاء الذين وصف عز وجل صفتهم بقوله (وكأين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون) بالله

أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء إلا وهم به مشركون في عبادتهم الاوثان والاصنام واتخاذهم من دونه أربابا ، وزعمهم أن له ولداً ، تعالى الله عما يقولون ، وقال الحافظ ابن كثير : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم من خلق السموات ومن خلق الارض ومن خلق الجبال ؟ قالوا الله وهم مشركون به ، وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك ، قال رسول الله ﷺ « قد ، قد » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وهذا هو الشرك الاعظم ، يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله : أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك »

وقد سبق القول بأن القرآن يزن بالقسطاس المستقيم عقائد الناس وأعمالهم ، ويميز بين أصناف موحديهم ومشركيهم ، فلا يحكم عليهم في الدنيا حكما واحداً عاما ، ولا يجعلهم في الآخرة مستوين في منازل الكرامة أو الندامة (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار ؟) (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون) ، وقد تقدم كلام السيد الامام في دقة القرآن في الحكم على الامم والشعوب إذ يحكم على الكثير أو الاكثر بالشرك ، أو بعدم الايمان بالله تعالى وحده ، ومن درس تاريخ الامم السابقة واللاحقة ، ونظر في أحوال أهل الملل السماوية وغيرها ، عرف كيف طر الشرك على الامم ، وسرى في عباداتهم سريان السم في الدسم « ومازال الشيطان - كما قال ابن القيم في إغاثة اللهفان الكبرى - يوحي إلى عباد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والاقسام على الله بها ، مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه ، فاذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه - أي الميت - وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ

قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج اليه ويذبح عنده ، فاذا تقرر هذا عندهم ، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيداً ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم «قال» وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد ، وأن لا يعبد إلا الله ، فاذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل الرتب العالية ، وحطهم عن منزلتهم ، وزعم أنه لاحرمة لهم ولا قدر ، وغضب المشركون واشمأزت قلوبهم كما قال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام ، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين ، حتى عادوا أهل التوحيد ، ورموهم بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم ، ووالوا أهل الشرك وعظموهم ، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون)» وما ذكره هذا الامام المحقق رحمه الله من التنقل في تعظم الصالحين إلى عبادتهم هو حال أكثر الامم من عرب وعجم ، في كل زمان ومكان ، طبقا لما أخبر به الله في القرآن (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

أما التوسل الخلافي المشهور بين العلماء ، المحصور في دعاء الله وحده مع التوسل اليه بصالحي عباده ، كقولهم : اللهم بجاه فلان عندك ، أو بحق فلان ، أو بحرمته ، أسألك أن تفعل كذا فهو يتوقف على السماع والنقل بمثل هذه الالفاظ ، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين وسلف الامة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وقد يظن بعض الناس أن دعاة التوحيد وحماته ينكرون حرمة الرسل أو جاههم أو كرامتهم على ربهم ، في حياتهم أو بعد مماتهم . والجواب أن هذه تهمة باطلة وظن آثم (ان بعض الظن اثم) كيف وجاه الرسل صلوات الله عليهم ثابت بالقرآن ، قال تعالى في حق موسى «ع . م» (وكان عند الله وجيها) وقال في حق عيسى «ع . م» (وجيهاً في الدنيا والآخرة) فاذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل فكيف بفخر هذا العالم ، وسيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ ؟

لاشك أن جاهه أعظم ، ولكن جاه المخلوق عند المخلوق ليس كجاهه عند الخالق، فانه تعالى لايشفع عنده أحد إلا باذنه قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه) وقال سبحانه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه ولغير من ارتضاه . وأما ماأخرجه الطبراني في الكبير والاوسط وابن حبان والحاكم من حديث فاطمة بنت أسد ، والشاهد منه « بحق نبيك والانبياء الذين من قبلي » وما رواه أحمد وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري في « من خرج من بيته الى الصلاة فقال : اللهم بحق السائلين عليك،وبحق ممشاي اليك» الحديث ، فهذان الحديثان على كونهما متكلما فيهما ليس فيهما إلا توسل بحق النبيين فحسب ، وحقهم هو مافضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة ، وما خصهم به من الخصائص والمزايا ، كاجتبائهم واصطفائهم ، وما وعدهم به من النصر والتمكين ، والعز والتأييد ، وقبول شفاعتهم إذا شفعوا بعد الاذن والرضا، فهذا توسل اليه تعالى بأفعاله ، وأفعاله سبحانه ليست من مخلوقاته ، بل هي من مقتضى أسمائه وصفاته .

فقد علمت من هذا أنه ليس الخلاف في جاه الرسل الثابت لهم عند ربهم ، وإنما الخلاف في فهم المراد من التوسل بالجاه والحرمة والحق ، وهل جعله الله سبباً شرعيا في إجابة الدعوات ؟ فان كان المراد منه معنى يرجع إلى أفعاله تعالى وصفاته ، كاصطفائهم واجتبائهم ورفع درجاتهم في الدنيا والآخرة فبه نقول :

بيد أن ههنا مسألة مهمة ، وهي أن حقوق الرسل عليهم السلام وصلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة تربطها باجابة سؤاله ، فاذا قال السائل أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي لي حاجتي ، فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحا ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ وإذا قلت بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى أطلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي ملازمة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفيا عنه لا في حياته ولا بعد مماته ولا هو محل نزاع ، ولكنه ليس من عملك ، الذي تستفيد أنت منه وتستحق الجزاء عليه ، وإنما العامل هو الذي يجنى ثمرة عمله في

الدنيا والآخرة ، قال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) ، فلو كان التوسل بصلاح الصالحين وعمل العاملين ، يفيد المتوسلين الجاهلين العاطلين عن العمل في دينهم أو دنياهم ، لهان الامر علينا معشر المسلمين ، ولنلنا كل خير من ذلك ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلا : اللهم حقق آمالنا ، وأنلنا وحدتنا واستقلالنا ، بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، ففتحت لهم فتحا مبينا ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا إننا نتوسل إليك بفتوحهم وعلومهم وأعمالهم ، أن تهب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان، والحضارة والعمران ، مثل ما وهبت لهم ، فهل تفيدنا هذه التوسلات الدنيوية، بجاه أسلافنا وما ملكوا من قوة وثروة ، وسعة سلطان، واستبحار عمران ، ونحن قد تداعت علينا الامم ، فجعلتنا مغنما أو نهبا مقسما ؟! كلا إنما يجب علينا أن نعمل كما عملوا لنكون لهم من الوارثين ، وهكذا شأن التوسل الديني الاخروي ، فمن وفقه الله وألهمه رشده يتقي عقاب الآخرة بما شرعه الله لاتقائه من التوبة والايمان والاعمال الصالحة ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضا، ولا يبطل بعضها بعضا. هذا وأن القرآن الكريم وكتب السنة طافي بالادعية والاذكار التي تعبدنا الله بها ، وقد جمعت في كتب خاصة ، فليت مشايخ الطرق يرشدون مريديهم اليها، ويقصرون أنفسهم ومريديهم عليها ، فهي هي المنقذة من الضلال ، والموصلة إلى ذي العزة والجلال ، لا تلك التوسلات المبتدعة التي يشرعونها ويدعون الناس اليها ، ويضللون من ينكرها عليهم ، وهم يعلمون أن الله تعالى قد أكمل دينه ، وأتم نعمته (قل أأنتم أعلم أم الله؟)

---

١٠٧ ﴿ أوامنوا أن تأتيهم غاشـية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ ﴾ يقول عز من قائل : أفأمن هؤلاء الذين لا يقرون بأن الله هو ربهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيره ، أن تأتيهم غاشية من عذاب الله تغشاهم من عقوبة الله ، وعذاب الله على شركهم بالله ، أو تأتيهم القيامة فجأة ،

وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم الله عز وجل في ناره ، وهم لايدرون بمجيئها ، وقيامها « ابن جرير » ومعنى (غاشـية من عذاب الله) أي نائبة تغشاهم وتجللهم ، و (هل أتاك حديث الغاشية ؟) كناية عن القيامة وجمعها غواش ، وغشي « كرضي » فلان أصحابه إذا أتاهم ، وغشى الشيء الشيء إذا لحقه وغطاه ، ومنه في التنزيل غشيان الموج واليم والدخان والعذاب للناس ، وهذه الآية كقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الارض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم في تقلبهم فماهم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤوف رحيم؟) وقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ؟) . وقد فسر السيد الامام هذه الآيات الاربع من سورة الاعراف وقال إنها إنذار لأمة الدعوة المحمدية عربها وعجمها من عصر النور الاعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها ، كما ترشد إليه الرابعة منها «قال» رحمه الله : قد كان ينبغي للمسلمين وهذا كتابهم من عند الله عز وجل أن يتقوه تعالى باتقاء كل ماقصـه عليهم من ذنوب الأمم التي هلك بها من قبلهم ، وزال ملكهم ، ودالت بسببها الدولة لاعدائهم إذ بين لهم أن ذنوب الامم لا تغفر كذنوب بعض الافراد ، وسـنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، ولكنهم قصروا أولا في تفسير أمثال هذه الآيات المبينة لهذه الحقائق ، ثم في وعظ الأمة بها ، وإنذارهم عاقبة الاعراض عنها ، وترك الاتعاظ بتدبرها ، ومن يقرأ شيئا من تفسـيرها فانما يعنى باعرابها ، والبحث في ألفاظها ، أو جدل المذاهب فيها ، ثم إنهم يجعلون معانيها خاصة بالكافرين ، ويفسرون الكافرين بمن لايسمون أنفسهم مسلمين ، «قال» وطالما أنكر علينا بعض أدعياء العلم والدين ، أننا جعلنا الآيات التي نزلت في الكفار شاملة لأهل الاسلام والايمان ، مأفوكين عن تدبرها المراد منها ، جاهلين للسنن العامة فيها ، وكذلك كان يقول أهل الكتاب من

قبلهم، فظنوا كما ظنوا أن الله تعالى يحابي الأمم والأقوام لأجل رسلهم، وأنه يعطيهم سعادة الدنيا والآخرة بجاههم لا باتباعهم، وقد راجت هذه العقائد في المسلمين، وكانت تجارة « باسم الدين » للدجالين الضالين المضلين (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) اه

ومعنى إتيان الساعة بغتة، مجيئها فجأة على حين غفلة، من غير توقع ولا انتظار، ولا إشعار ولا إنذار، وقد تكرر هذا القول في التنزيل، وجاء في حديث أبي هريرة من الصحيحين، واللفظ للبخاري « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة ذات اللبن) فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - من ألاطه: طلا حجارته بالطين أو غيره كالجص ليمسك الماء ويحفظه - فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها » والمعنى أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة فلا يشعرون إلا وقد أتتهم، وقد قال تعالى في سورة الاعراف (١٨٧ : ٧ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل إنما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفي عنها، قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قال السيد الامام في تفسيرها مبينا الحكمة في إبهام أمر الساعة على الناس . وفيه إيذان بأن ماهو من شأن الرب لايكون للعبد - أي وإن كان نبيا - فهو تعالى قد رباه ليكون منذراً ومبشراً، لا للاخبار عن الامور بأعيانها وأوقاتها، والانذار إنما يناط بالاعلام بالساعة وأهوالها، والنار وسلاسلها وأغلالها، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها، ليخشى أهل كل زمن اتيانها فيه، والاعلام بوقت إتيانها وتحديد تاريخها ينافي هذه الفائدة، ثم قال : فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليوم، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا فيها الحق، ويتحرروا الخير، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدال، والقيل والقال . اه كلام السيد

« قلت » ومن أراد استيفاء المباحث على الساعة أو القيامة للافراد وللأمة

أو الدولة والعالم ، وما ورد في قرب الساعة ، والروايات في عمر الدنيا ونقدها ، وتفنيد كلام السيوطي في عمر الدنيا ، وتخطئة المحققين له ، وكلام الامام ابن حزم في جهل من حدده ، ثم تحقيق ماورد في أشراط الساعة وعلاماتها والبحث في رواياتها ، وعللها وإشكالاتها وتمييز ماصح من غيره فليراجع تفسير المنار ، فقد أطال السيد الامام النفس في ذلك كله ، فراجعه فانك لا تظفر في غير تفسيره مثله (ج ٩ ص ٤٦١ — ٥٠٧)

١٠٨ ﴿ قل ﴾ يا رسول الله ﴿ هذه ﴾ الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من الدعاء إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له ، دون الآلهة والاوثان ﴿ سبيلي ﴾ سنتي ومنهاجي ، وقال مقاتل : ديني ، والسبيل كالطريق يذكر ويؤنث ﴿ أدعو إلى الله ﴾ وحده لا شريك له ﴿ على بصيرة ﴾ يقين ، والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل ، أدعو ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ أي ويدعو اليه أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني ﴿ وسبحان الله ﴾ أي تنزيها لله وتعظيما له من أن يكون له شريك في ملكه ، أو معبود سواه في سلطانه ، ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ أي وأنا بريء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم مني ، تعالى الله عن شركهم علوا كبيرا (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً) . دل قوله تعالى (على بصيرة) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذي انفرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم لمجرد الادعاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن ، وذكر مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الاكوان ، وما فيها من الاحكام والاتقان على انظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه (رسالة التوحيد)

نقل ناصر السنة البغوي عن عبد الله بن عباس (رض) أنه فسر قوله تعالى (ومن اتبعني) قال : يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة

وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الايمان ، وجند الرحمن ، وقال عبد الله بن مسعود : أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هـذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فانهم كانوا على الصراط المستقيم .

«أقول» بعد أن سمعت قول هذين الصحابيين الجليلين ، تعال فانظر ماقاله في تفسير هذه الآية أشهر المفسرين المتكلمين الفخر الرازي « ر.ح » فقد فسرها تفسيراً جعل به الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه من محترفي صناعة الكلام المبتدع ، والمشتغلين بعلم الاصول المستنبط المكتسب ، فاقرأ وتعجب (قال) في (ج ٥ تفسير الرازي ص ١٧٢) وهذه الآية (قل هذه سبيلي) تدل على أن حرفة الكلام وعلم الاصول ، حرفة الانبياء عليهم السلام ، وأن الله مابعثهم للخلق إلا لأجلها . «وأقول» لقد علم بالضرورة أن الانبياء عليهم السلام قد أوحي اليهم أنما الله إله واحد ، وقامت الآيات الحسية والعقلية في الآفاق وفي الانفس على أنه لارب غيره ولا معبود سواه ، وجاءت الكتب الالهية كلها ناطقة بذلك ، وقد عرف بالاضطرار من دين الاسلام أن الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وهم خير الأمة لم يسلكوا طريق هؤلاء المتكلمين الذين أوجبوا النظر فيما ابتدعوه ، ولم يأخذوا معرفة الله سبحانه وتوحيده مما نصبه فلاسفة اليونان ومن دانوا ببدعتهم ، مما سموه الادلة العقلية ، والموازين الكلامية ، زاعمين أن قوانين المنطق هي القواطع العقلية ، وأن ماجاءت به الكتب ، وأخبرت به الرسل من صفات الله معدود من متشابه الكلام ، مصروف عن حقيقته . ولاشك أن أصحاب النبي ﷺ الذين هم صفوة هذه الأمة وخيارها ، المتبعون للرسول علما وعملا ، كانوا يدعون إلى النظر والاستدلال والاعتبار بالآيات والبراهين والادلة التي بعث الله بها رسوله ﷺ والى تدبر القرآن وما فيه من البيان ، والقرآن قوله سبحانه الذي جاء فيه (أفلم يدبروا القول ؟) فأين كانت هذه المذاهب الكلامية الجدلية ، التي تضاد صريح اللغة وفقه القرآن وأساليب البيان ، وحسبك

من إنحرافها أن جمهور المتكلمين من أهلها قد فسروا كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) التي هي ركن الدين وأساسه الاعظم بغير ماتدل عليه لغة وشرعا ، ومنهم الامام الرازي في مواضع من تفسيره : فهو يفسر لفظ (الاله) بمعنى الخالق المدبر كما تجده في تفسير قوله تعالى (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) ولم تكن العرب تعتقد أن آلهتها قد خلقت شيئا من العالم ، أو تدبر أمراً من أموره ، بل كانوا يعرفون ويعترفون بأن الله تعالى وحده الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور كما ثبت ذلك بنص القرآن العظيم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) وقال عزت كلمته (قل من يرزقكم من السماء والارض ، أمّن يملك السمع والابصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الامر ؟ فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ؟)

أما آلهتهم فقد كانوا يتقربون بعبادتهم إلى فاطر السموات والارض كما أخبر تعالى عنهم بقوله (ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقال (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فجاءت كلمة التوحيد تلقف ما يأفكون ، وتنفي مايثبتون ، فكلمة « لا إله » نفي لكل معبود في الوجود ، وإبطال لعبادته ، وكلمة « إلا الله » إثبات لعبادة المعبود بحق وحده (ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) إذاً فمعنى كلمة « إله » في لغة العرب والقرآن هو المعبود بحق أو بغير حق ولفظ الجلالة « الله » علم على المعبود بحق وهو الله عز وجل وحده ، وبين تعالى أن من تفرد بالايجاد والامداد ، هو الذي يستحق العبادة دون غيره ، وأقام عليهم الحجة بما أقروه من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الالوهية

بعد أن فرغت من بيان مافي تلك العجيبة الجريئة التي جاءت في تفسير الفخر عن الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أوجه نظر القارىء الكريم إلى ما كتبه السيد الامام عليه الرحمة والرضوان في الامام الرازي وتفسيره الكبير وعلماء الكلام ومذاهبهم المتناقضة ، ثم رجوعهم عنها ، وهي القول الفصل في الموضوع ، وإني ألخصها بما يلي : وأدع استيفاءها بطولها لمن يحب وهي في [ج ١١ ص

٣٧٣ — ٣٨٠] من تفسير المنار قال رحمه الله تحت عنوان « استطراد في المتكلمين وتفسير إمامهم الرازي » إعلم أن الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والاصوليين في عصره ، وإن علماء النظر اعترفوا له بهذه الامامة من بعده ، ولكنه كان من أقلهم حظا من علم السنة وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين ، بل وصفه الحافظ الذهبي إمام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث ، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع به عنه لانه من أئمة الاشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا العدول . أما علمه بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ، من الفلاسفة والمتكلمين ماينبئك بحقيقته عند المحققين وهو :

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكثره وحي الشياطين

ولشيخ الاسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض [1] « كتابه أساس التقديس » ثم قال: هذا وإن أكثر النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في الايمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم إمام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن

---

(١) أقول : هذا الكتاب من نفائس المخطوطات الظاهرية بدمشق ، وهو يقع في بضع مجلدات ، ومعظمه مفرق في مجلدات « الكواكب الدراري في تبويب مسند الامام احمد على أبواب البخاري » للامام ابن عروة الدمشقي الحنبلي الذي رتب المسند على أبواب البخاري وشرحه في مائة وعشرين مجلدا ضخما ، قال السخاوي في الضوء اللامع : وطريقته فيه انه إذا جاء لحديث الافك مثلا يأخذ نسخة من شرحه للقاضي عياض فيضعها بتمامها ، وإذا مرت به مسألة فيها تصنيف مفرد لابن القيم او شيخه ابن تيمية او غيرهما وضعه بتمامه ، ويستوفي ذاك الباب من المغني لابن قدامة ونحوه اه

وفي دار الكتب الظاهرية منه الآن عشرات من المجلدات متفرقة ، تبحث في التفسير والحديث والسيرة والأصول والتاريخ والأدب وغير ذلك، وكان ابن عروة زاهداً عابداً قانتا لا يقبل لأحد شيئا ولا يأكل إلا من كسب يده . توفي سنة ٨٣٧ رحمه الله وإيانا . وكتبه محمد بهجت البيطار

حجر في شرحه للبخاري [من كتاب التوحيد] ومن قبله والده الامام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبيا في هذا العصر لكان الجويني ، ومن بعدهما أبو حامد الغزالي في آخر عمره ، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضا ، رحمهم الله ورحمنا ، وعفا عنهم وعنا ، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه إلى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين ، وإنما هو لحراسة العقيدة كالحرس للحاج ، « وأقول » إنما راجت كتبه في عصرهم لانها وضعت للرد على ملاحدتهم ومبتدعيهم ، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعيه كما بيناه مراراً وأما تلقين المسلمين أنفسهم للعقائد وقواعد الاسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الاحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين ، فتجعل أصلا ترد اليها آيات القرآن المبين ، إيثاراً لبيانهم على بيانه

﴿ الدعوة الى الله على بصيرة ﴾

كان السيد الامام رحمه الله تعالى أنشأ بمصر جمعية ومدرسة دعاها باسم ﴿ دار الدعوة والارشاد ﴾ تحقيقا للعمل بهذه الآية الكريمة وهي الدعوة إلى الله على بصيرة ، ولتجديد شباب الامة وإعادة سلطان الاسلام ، وتربية طائفة من المعلمين لذلك كله يكونون ذكرى للسلف الصالح علماً وعملا واعتقاداً ، مزودين بقوى هذا العصر وحقائقه ، وسعة علومه ومعارفه ، مجددين هداية القرآن العليا ، محيين السنة النبوية المثلى ، هدفهم الاسمى إصلاح آخر هذه الامة بما أصلح أولها وقد كان من سوء حظ المسلمين أن قضت الحرب العامة على هذه المؤسسة الوحيدة من نوعها

ولكن نظام المدرسة مطبوع ، وفيه بيان العلوم والفنون التي تدرس في قسم الدعاة والمرشدين ، والطريقة الاصلاحية لتدريسها ، وفق الله الامة لتجديد هذا المعهد الديني ، وإعادة العصور الذهبية للاسلام

١٠٩ ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم ﴾ هو رد لقولهم (لوشاء ربنا لأنزل ملائكة) أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول عن ابن عباس يؤيده قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين ، إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) الآية وقوله تعالى (وما جعلناهم بشرآ ليأكلون الطعام وما كانوا خالدين) وقوله تعالى (قل ما كنت بدعاً من الرسل) الآية

قال السيد الامام : هذه الشبهة شبهة كونهم بشراً ، قد ذكرت في سور كثيرة عند الكلام على رسالة الرسل كالاعراف وإبراهيم والنحل والكهف والانبياء والشعراء ويس والتغابن ، وذكرت في بعض السور بلفظ رجل بدل بشر كقوله تعالى في أول سورة يونس (أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) وهذا في نبينا ﷺ ومثله عن أول من كذبوا الرسل وهم قوم نوح قال تعالى في قصته من سورة الاعراف (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) ويليه حكاية مثل ذلك عن هود مع قومه (آية ٦٧)

هذه الشبهة على الرسالة وهي كون الرسول بشراً مثل المرسل اليهم لم تدعم بحجة ، ولم تؤيد ببرهان ، بل هي باطلة بالبداهة ، لأنها تقييد لمشيئة المرسل وقدرته وهو الفعال لما يريد (يختص برحمته من يشاء) وقد كان أولئك المشتبهون مؤمنين بقدرته التامة ، ومشيئته العامة ، بل كون الرسول إلى البشر بشراً مثلهم يفهمون أقواله ويتأسون بأفعاله هو المعقول الذي تقتضيه الفطرة وطبيعة الاجتماع ولكن الاوهام الجهلية تقلب الحقائق ، وتعكس القضايا اه

وقال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لامن النساء ، وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، أي ان الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة باسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب وبقوله (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه

السلام ، وبقوله تعالى (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هـذا أن يكن نبيات بذلك ، فان أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف ، فهذا لاشك فيه اهـ

« أقول » : وانما كان وحي التشريع خاصا بالرجال دون النساء ، لان للمرأة من نظامها الفطري واختصاصها المنزلى ، ما يعوقها عن توفية الرسالة الالهية حقها والقيام حق القيام بتلقيها وتبليغها ، ومن أكبر موانعها الفطرية الحمل والولادة وحضانة الاطفال وتربيتهم وتدبير المنزل وإدارة شئونه ، وقد اقتضت طبيعة الانوثة أن تسقط الشريعة عن النساء الصلاة زمن الحيض والنفاس ، ووجوب الجماعة والجمعة والعيدين ، وخصت الرجال بالقتال وحماية الديار والدفاع عن الحق بالقوة ، وحكمة هذا التخصيص وعلته طبيعـة كل من الذكر والانثى ، ونظام فطرته التي فطره الله عليها (لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) على أن القيام بأعباء الرسالة فوق ذلك كله ، والله يصطفي من خلقه ويختص برحمته من يشاء فيجعله من أنبيائه ورسله (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله) وقوله تعالى ﴿ من أهل القرى ﴾ أي من أهل الامصار دون أهل البوادي ، والقرى جمع قرية وهي الموضع الذي فيه الناس ، والمراد بالقرى المدن الجامعة لعظماء الامة ورؤسائها ، وانما كان الرسل يبعثون من أهل المدن الكبرى وفيهم لان سائر البلدان والبوادي تتبعهم إذا آمنوا ﴿ أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المقيمون على شركهم بالله ، المكذبون رسوله من قريش في البلاد ، فانهم أهل سفر الى اليمن والشام رحلتهم في الشتاء والصيف فينظروا فيما وطئوا من البلاد الى وقائعنا فيمن

أوقعنا به من الامم قبلهم ، ويروا ما أحللنا بهم من بأسنا ، بتكذيبهم رسلنا ، وجحودهم آياتنا ، أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عقبى تكذيبهم فيعتبروا ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ ﴾ هذا خبر مؤكد بلام القسم يفيد أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة . وأن تلك الدار للذين اتقوا الشرك والشرور المحرمة ، وآمنوا بالرسل واتبعوهم ، خير من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث المكذبين للرسل ، الذين لاحظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذي هو من قبيل اللعب في قصر مدته ، وعدم فائدته — دع ما يستلزمه من المعاصي المفضية الى عذاب الآخرة — ذلك بأن نعيم الآخرة البدني أعلى وأكمل من نعيم الدنيا في ذاته ، وفي دوامه وثباته ، وفي كونه ايجابياً لا سلبياً ، وفي كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام ، وفي كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ، ولا إزالة أقذار ، فما القول بنعيمها الروحاني ، من لقاء الله ورضوانه ، وكمال معرفته المعبر عنه برؤيته ؟ أتغفلون فلا تعقلون هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ؟ أما لو عقلتم لآمنتم [١] واضافة « الدار » الى الآخرة ، من اضافة الصفة للموصوف لمغايرتها له ، ولا نزاع بين النحاة في وقوع مثل هـذا في الكلام العربي ، وحسبك وروده في الكتاب العزيز ، ومثله قوله تعالى (ان هذا لهو حق اليقين) ويقال : أتيتك عام الاول ويوم الخميس . قرىء « تعقلون » بالتاء والياء

ثم بين تعالى : تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام أن العاقبة لرسله كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) وقال (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا) وأن نصره يأتيهم اذا تمادى المبطلون في تكذيبهم ، فقال سبحانه :

﴿١﴾ انظر تفسير المنار ج ٧ ص ٣٦٤

(١١٠) حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١١) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

١١٠ ﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ قال الامام ابن جرير في وجه اتصال الآية بما سبقها : يقول تعالى ذكره (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم من أهل القرى) فدعوا من أرسلنا اليهم فكذبوهم وردوا ما أتوا به من عند الله ، حتى إذا استيأس الرسل الذين أرسلناهم اليهم منهم ، أن يؤمنوا بالله ويصدقوهم فيما أتوهم به من عند الله ، وظن الذين أرسلناهم اليهم من الامم المكذبة ، أن الرسل الذين أرسلناهم اليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم ، جاءهم نصرنا اه

وتلك سنته تعالى في الاقوام ، يرسل اليهم رسله بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل صلوات الله عليهم حتى يستشعروا القنوط من تمادي التكذيب ، وتراخي النصر ، جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بغتة ، كالطوفان الذي أغرق قوم نوح ، والريح التي أهلكت عاداً قوم هود ، والصيحة التي أخذت ثمود ، والعذاب الذى هلك به النمروذ الذي حاول إحراق إبراهيم ، والخسف الذي نزل بقرى قوم لوط وهم فيها (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) والمراد

تذكير قوم النبي ﷺ بأن سنته تعالى في عباده واحدة ، لا ظلم فيها ولا محاباة ، وأنهم إن لم يتوبوا وينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل ، كما قال في سورة القمر (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر) وقد نصر الله نبيه ﷺ في غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي كذبوا (بالتخفيف وكسر الذال) والباقون بالتشديد ، قال الامام الرازي : ومعنى التخفيف من وجهين (أحدهما) أن الظن واقع بالقوم ، أي حتى إذا استيأس الرسل من إيمان القوم ، فظن القوم أن الرسل كذبوا فيما وعدوا من النصر والظفر ، فان قيل : لم يجر فيما سبق ذكر المرسل اليهم ، فكيف يحسن عود هذا الضمير اليهم ؟ قلنا ذكر الرسل يدل على المرسل اليهم ، وإن شئت قلت إن ذكرهم جرى في قوله (أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) فيكون الضمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذبي الرسل ، والظن ههنا بمعنى التوهم والحسبان (والوجه الثاني) ان يكون المعنى أن الرسل ظنوا أنهم قد كذبوا فيما وعدوا : وهذا التأويل منقول عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنه (قالوا) وإنما كان ذلك لاجل ضعف البشرية ، إلا أنه بعيد ، لان المؤمن لا يجوز أن يظن بالله الكذب بل يخرج بذلك عن الايمان ، فكيف يجوز مثله على الرسل ؟

وأما قراءة التشديد ففيها وجهان (الاول) أن الظن بمعنى اليقين ، أي وأيقنوا أن الامم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم (معه) الايمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم ، فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظن بمعنى العلم كثير في القرآن قال تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) أي يتيقنون ذلك (والثاني) أن يكون الظن بمعنى الحسبان والتقدير حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم ، وهذا التأويل منقول عن عائشة (رض) وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية روى ابن أبي مليكة عن ابن عباس (رض) أنه قال : وظن الرسل أنهم كذبوا لانهم كانوا بشراً ،

ألا ترى الى قوله (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟) قال فذكرت ذلك لعائشة «رض» فأنكرته وقالت : ما وعد الله محمداً ﷺ شيئاً إلا وقد علم أنه سيوفيه ، ولكن البلاء لم يزل بالانبياء حتى خافوا من أن يكذبهم الذين كانوا قد آمنوا بهم ، وهذا الرد والتأويل في غايه الحسن من عائشة اه

«أقول» وقد أخرجه البخاري بسنده عن عائشة «رض» قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى (حتى إذا استيأس الرسل) هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك . وأما ماروي عن ابن عباس ومثله عن ابن مسعود رضي الله عنهما من أن المعنى أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا فيما وعدوا فهو مخالف لما رواه آخرون عنهما . أما ابن عباس فقد روى الاعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قال : لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك (فنجي من نشاء) ، وكذا روي عن سعيد بن جبير ، وعمران بن الحارث السلمي ، وعبد الرحمن بن معاوية ، وعلي بن أبي طلحة ، والعوفي عن ابن عباس بمثله . وأما ابن مسعود فقد روى ابن جرير عنه بسنده اليه قال (حتى إذا استيأس الرسل) من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الامر أنهم قد كذبوا « بالتخفيف »

فهاتان روايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس ، وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك ، وانتصر لها ابن جرير ، ووجه المشهور عن الجمهور ، وزيف القول الآخر بالكلية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه[1] (فنجي من نشاء) أي فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لانهم بحسب مشيئته ، وسنته تعالى في عباده وحكمته ، هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم ، بما يختارون من التوحيد

(١) انظر ابن كثير في تفسير الآية

على الشرك ، ومن الخير على الشر . قرىء فننجي « بالتخفيف والتشديد » من أنجاه ونجاه و (فنجي) على لفظ الماضي المبني للمفعول ، وقرأ ابن محيصن (فنجا)
(ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أي ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن بطشنا به من أهل الكفر بنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وخالفوا رسله وما أتوهم به من عنده ، وتلك سنة الله في رسله مع أمم الدعوة ، يبلغونهم الرسالة ، ويقيمون عليهم الحجة ، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب فيؤمن المهتدون ويصر المعاندون فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين

قال السيد الامام : إصابة الناس في المكاره والشدائد عقابا لهم على جرائم ارتكبوها قد يكون رحمة بهم ، وقد يكون عبرة وموعظة لغيرهم ، وهذا من سنن الله تعالى المطردة في الاقوام والامم ، وإن لم يطرد في الافراد لقصر أعمارهم ، ولذلك قال (عن القوم المجرمين) ولم يقل عن المجرمين . ثم ختم سبحانه هذه القصة والسورة بقوله :

---

١١١ ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب ﴾ تقدم تفسير القصص في هذه السورة ، وأنه مصدر أو اسم من قص الخبر إذا حدث به على أصح الوجوه وأصدقها ، لانه من قص الاثر أو اقتصه إذا تتبعه وأحاط به خبرا ، ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول ، فيكون القصص بمعنى المقصوص من الاخبار والاحاديث ، والمراد من (قصصهم) قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته ، ومنهم من قال قصص الرسل ، وأيده بقراءة (قِصصهم) بكسر القاف ، وكلا الوجهين صحيح ، والاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ماليس بمشاهد ، والمراد منه التأمل والتفكر . قال الراغب : وأصل العبر تجاوز من حال إلى حال ، فأما العبور فيختص بتجاوز الماء إما بسباحة أو في سفينة أو على بعير أو قنطرة ، ومنه عبر النهر لجانبه حيث يعبر اليه أو منه ، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في الجب ، وإعلائه بعد وضعه في السجن ، وتمليكه مصر بعد أن بيع بيع العبد بالثمن الخسيس ، والتمكين له في الارض من بعد ذلك الأسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من بغاه سوءاً من اخوته ، وجمع

شمله بأبويه وبهم على ما أحب بعد المدة الطويلة ، والمجيء بهم من الشقة النائية البعيدة . إن الذي قدر على ذلك كله أيها الناس لقادر على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له في البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والاصحاب ، وان مرت به شدائد ، وأتت دونه الايام والليالي والحوادث ، ثم انه تعالى ذكر هذه القصة - كما ذكر قصص الرسل مع أقوامهم - لما فيها من العبرة ، والدلالة على الحكمة والقدرة ، وانما قال (لأولي الالباب) وهم أصحاب العقول الراجحة ، لان أهل البصيرة والروية من العقلاء هم الذين يعتبرون بعواقب الامور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها ، بعد التأمل في حقيقتها وصفاتها ، وأما الاغرار الغافلون ، والظالمون المعاندون ، فلا يمرنون عقولهم على الاستقلال في النظر ، والاعتبار بما جرى على الافراد والامم ، فلا يفيدهم النصح والتذكير ، ولا سوء العاقبة والمصير

﴿ ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي ما كان هذا القرآن أو القصص حديثاً يختلق ويكذب ، لان هذا النوع من القصص الذي أعجز حملة الاحاديث ورواة الاخبار ، ممن لم يطالع الكتب ، ولم يخالط العلماء ، دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه بطريق الوحي والتنزيل ، ولهذا قال : (ولكن كان (تصديق الذي بين يديه) أي من الكتب السماوية ، التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والانجيل والزبور ، أي تصديق ما عندهم من الحق في هاتيك الكتب ، لا كل الذي عندهم ، والا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم ، مما جاء القرآن لازالته ومحوه ويستحيل أن يكون مصدقا لما جاء لابطاله ، فتنبه لذلك ولا تكن من الغافلين ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ أي من أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، والاخبار عن الرب تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وتنزهه عن مماثلة مخلوقاته ، وفيه العظات والعبر بقصص الرسل مع أقوامهم وسائر ما بالعباد اليه حاجة

قال السيد الامام رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب

فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) أي ولقد جئنا هؤلاء الناس بكتاب عظيم الشأن ، كامل البيان ، وهو القرآن ، فصلنا آياته تفصيلا على علم منا بما يحتاج اليه المكلفون من العلم والعمل ، وتزكية أنفسهم ، وتكميل فطرتهم ، وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، حال كونه أو لأجل أن يكون بذلك منار هداية عامة ، وسبب رحمة خاصة ، لقوم يؤمنون به إيمان إذعان ، يبعث على العمل بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه ، وهو بهذا التفصيل العلمي حجة على من لا يؤمنون به اذا لم يهتدوا به ، ولم يرضوا لأنفسهم أن تكون أهلا لرحمته ، وقال (التفصيل) عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولا بعضها من بعض ، بما يزيل الاشتباه واختلاط بعضها ببعض في الافهام ، وليس معناه ذكر كل نوع منها على حدته ، ولا التطويل ببيان جميع فروعه ، ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج اليه في أمر ديننا . أسهب حيث ينبغي الاسهاب ، وأوجز حيث يكفي الايجاز . فالقرآن فيه تفصيل للحق في العقائد ، بالحجج والدلائل ، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الاحكام ، بما تصلح به أمور البشر ، وشؤون الاجتماع ، ﴿ وهدى ﴾ كامل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ، فانه يجذبه ببيانه وبلاغته الى الحق الذي قرره ، وعمل الخير والصلاح الذي بين فوائده ومنافعه ﴿ ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ عامة للمؤمنين الذين تنتشر فيهم هدايته ، وتنفذ فيهم شريعته ، فهو رحمة لهم في الدنيا والآخرة جميعاً . وأما الخاضعون لأحكام الشريعة من غير المؤمنين به فانهم يكونون آمنين في ظلها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحرار في عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين بها في حقوقهم ومعاملاتهم ، عائشين في وسط خال من الفواحش والمنكرات ، التي تفسد الاخلاق ، وتولد الامراض [1]

أقول انهم يشاركون المؤمنين في هذه العيشة الراضية ، والحياة الخالية من كل شائبة ، فليت دعاة النصرانية المبشرين ، الذين يسعون لتنصير مسلمي

«١» انظر ص ٢٠٥ و ٤٤١ ج ٨ من تفسير المنار

الارض ، ويبغون زوال القرآن من الوجود ، ليتهم يعلمون أن أمة القرآن التي دانت به ، وأذعنت لحكمه ، ولم تلتفت الى شيء غيره ، قد آمنت عن طريقه وحده بكل ماقص عليها من حال الرسل مع أقوامهم ، وما فصل لها من معجزاتهم وآياتهم ، وأن هذا القرآن الذي تولى الله حفظه ، وجعله تبيانا لكل شيء (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) لو زال لا قدر الله تعالى من الارض ، فان أمته لا تؤمن لأحد بعده بنبوة ولا رسالة ، ولا تعتقد بنزول وحي من السماء ، على أحد من الانبياء ، فايمانهم بالقرآن إيمان بسائر كتب الله ، وتصديقهم بخاتم النبيين تصديق لسائر رسل الله (لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) .

يقول الضعيف محمد بهجت ابن الشيخ محمد بهاء الدين آل البيطار الدمشقي

هذا آخر تتمة تفسير السيد الامام، لسورة يوسف عليه السلام

وقد وردت فيها على زاخر بحره وعلقت عليها من نفائس

لآليه ودره ، فرحم الله السيد الامام ، وجدد بمناره

وتفسيره عهد العروبة والاسلام ، وكتب فى

ذي الحجة وتم فى المحرم الحرام سنة ١٣٥٥ .

وسلام على المرسلين والحمد لله

رب العالمين

فهرس تفسير سورة يوسف

﴿ تم الفهرس ﴾

